

سلسلة:
إيقاظ أهل الإيمان لمغفرة رمضان (١)

حال المؤمنين في

شَهْرَان

لفضيلة الشيخ

د. محمد الديسي

حفظه الله وعفا عنه

الطبعة الخامسة

الطبعة الخامسة

شعبان ١٤٣٤هـ - يونيو ٢٠١٣ م

رقم الايداع: ١١٩٣١ / ٢٠١٣
الترقيم الدولي: ٣ - ٠٧٤٠ - ٩٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف



مقدمة الطبعة الخامسة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد..

هذه هي الطبعة الخامسة لهذا الكتاب، قمنا فيها بإدخال بعض الزيادات والتنقيح على الطبعة السابقة حتى يزداد نفع إخواننا بهذا الكتاب المبارك. وأغلب هذه الزيادات توجد في الجزء المتعلق بالقرآن الكريم، وبعض الحواشي المتعلقة بتوضيح بعض المعاني في الأحاديث النبوية الشريفة، وقد بلغت هذه الزيادات أكثر من عشرين صفحة، نسأل الله تعالى أن ينفع بها. ومما ينبغي الإشارة إليه أنه بالرغم من كون هذه الرسالة تركز على حال المؤمنين في شهر شعبان للتأسي بهم إلا أن كثيراً من موضوعاتها - كالإخلاص وتعمير أوقات الغفلة بالطاعات وقيام الليل وأحوال المؤمنين مع القرآن.. الخ - هي لكل الأزمنة. والله العظيم نسأل أن ينفع به مؤلفه والناظر فيه وكل من شارك في نشره ابتغاء وجه الله تعالى.

مسجد الهدى المحمدي

شعبان ١٤٣٤ هـ - يونيو ٢٠١٣ م

مقدمة الطبعة الأولى:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ. وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا
وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا. مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ..

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢].

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ
مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ

رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ

وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ..

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ وَأَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَذُرِّيَّتِهِ وَآلِ بَيْتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ.

فهذه بعض خطب اخترناها من مجموعة خطب "إيقاظ أهل الإيمان لمغفرة رمضان" في أهمية الاستعداد لموسم المغفرة في رمضان لفضيلة الشيخ / محمد الدبيسي حفظه الله تعالى وعفا عنه ، وهي تُبَيِّنُ " حال المؤمنين في شعبان " حتى يكونوا أهلاً لمغفرة الله تعالى ورحمته، وحتى تكون هذه الأحوال سبباً بعد فضل الله في عتقهم من النار في رمضان .

وقد أثرنا هذه المجموعة لكونها مختصرة ثلاثم هم الناس وعزائمهم اليوم، وإلا فهناك مجموعة من الخطب توسعت في عرض تلك المواضيع، وزادت عليها، نأمل أن نستفيد منها في تنقيح هذه الخطب وزيادتها والبسط لتلك الموضوعات المهمة، لتكون زاداً للمؤمنين المتقين لتحصيل أسباب نجاتهم ، والمسارة والمنافسة في تحقيق رضوان الله وفضله .

ومن الأهمية بمكان أن نُذَكِّرَ بِمَسْئُولِيَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْجَسِيمَةِ فِي رَفْعِ الْبَلَاءِ النَّازِلِ عَلَى أَقْطَارِ الْإِسْلَامِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَإِنْ مِمَّا يَخْفَى ذَلِكَ وَيُرْفَعُهُ أَنْ يَسْتَغْلِ الْمُؤْمِنُونَ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الشَّرِيفَةَ فِي الْعُودَةِ إِلَى اللَّهِ وَالْمَجَاهِدَةِ عَلَى أَعْمَالِ الطَّاعَةِ ، وَإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ ، مَعَ الْأَشْوَاقِ الْعَالِيَةِ لِمَحَبَةِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ حَتَّى يَكُونُوا أَهْلًا لِرَحْمَةِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ .

وإن التسوية والتأخير وطول الأمل للتوبة والأعمال الصالحة التي تُرْفَع إلى الله ويُضاعف أجرها في هذه الأيام الكريمة ، لما يزيد الجفوة بين المؤمنين وبين ربهم ، ويزيد من غفلتهم ، ويزيد من تسلُّط أعدائهم عليهم ، وإذا بهم يخرجون من رمضان كما دخلوا فيه ، وقد خاب وخسر من أتى عليه رمضان فلم يغفر له .

وكعادتنا في استعجال تفرغ وطبع تلك الرسائل تلاحقنا أخطاء كثيرة نرجو من الله العون على تلافيها ، والعتذر من القارئ لها مع النصح والدعاء بظهر الغيب ، فما كان فيه من خطأ فمننا ومن الشيطان والله ورسوله منه بريئان ، وما كان من صواب فمن الله وحده فله الحمد والثناء الحسن ، نسأل الله أن ينفع به قائله وكاتبه وناشره والناظر فيه .

مسجد الهدى المحمدي

ميدان طور سيناء - الظاهر

القاهرة

شعبان ١٤٢٧ ، أغسطس ٢٠٠٦

الفصل الأول:

أسباب الاهتمام بشهر شعبان:



- لأنه مقدمة لموسم المغفرة.
- لأن تعمير أوقات غفلة الناس بالطاعة والعمل الصالح يرفع الله تعالى به البلاء عن بقية المؤمنين.
- الوفاء بعهد المؤمنين مع الله تعالى استعداداً لرمضان.

إِنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بَعَادَهُ أَنْ يَسَّرَ لَهُمْ مَوَاسِمَ الْخَيْرَاتِ وَالطَّاعَاتِ، وَجَعَلَ لَهُمْ فِي أَيَّامِهِ نَفَحَاتٍ لِيَتَعَرَّضَ لَهَا الْعِبَادُ، وَيَرْجِعَ الْعَاصُونَ الْمَذْنُوبُونَ لِحَظِيرَةِ الطَّاعَةِ، وَيَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَتَشْمَلَهُمْ رَحْمَتُهُ، وَمَغْفِرَتُهُ.

فها هي قد أظَلَّتْنا مَوَاسِمَ الْمَغْفِرَةِ، وَمَوَاسِمَ الطَّاعَاتِ، وَها هي الشُّهُورُ الْمُبَارَكَةُ تُهَلُّ عَلَيْنَا، وَكَأَنَّهَا تَصِيحُ بِنَا: أَنْ تُجَهِّزُوا فَقَدْ قَرَّبَ مَجِيءَ الْحَبِيبِ !!

ها هي الأيَّامُ تُطَوِّي، وَها هو الزَّمَانُ قَدْ اسْتَدَارَ، وَها هو الْغَائِبُ الْمُنْتَظَرُ قَدْ قَرَّبَ مَجِيئَهُ؛ إِنَّهُ شَهْرُ اللَّهِ رَمَضَانَ، شَهْرُ الْخَيْرِ، شَهْرُ الصِّيَامِ، شَهْرُ الْقُرْآنِ، شَهْرُ الْقِيَامِ، شَهْرُ الصَّدَقَةِ... إِنَّهُ شَهْرُ الرَّحْمَاتِ.

(١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْعَلُوا الْخَيْرَ دَهْرَكُمْ، وَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ لِلَّهِ نَفَحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَسَلُوا اللَّهَ أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَاتِكُمْ، وَأَنْ يُؤْمِنَ رُوعَاتِكُمْ». أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (ح: ٧٢٠) ط. مَكْتَبَةُ الْعُلُومِ وَالْحِكْمِ - الْمَوْصِلِ. وَحَسَنَهُ الشَّيْخُ نَاصِرٌ فِي الصَّحِيحَةِ (١٨٩٠). قَوْلُهُ: «أَفْعَلُوا الْخَيْرَ» الْخَيْرُ هُنَا جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْبِرِّ (دَهْرَكُمْ) أَي مَدَّةُ حَيَاتِكُمْ جَمِيعُهَا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَعْلَمُ نَجَاتَهُ فِي أَي مَحَلٍّ وَلَا فِي أَي وَقْتٍ تَحْصُلُ، (وَتَعَرَّضُوا) أَي اقْصِدُوا، أَوْ مِنَ التَّعَرُّضِ؛ وَهُوَ الْمِيلُ إِلَى الشَّيْءِ مِنْ أَحَدِ جَوَانِبِهِ (لِنَفَحَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ) أَي اسْلُكُوا طَرَفَهَا حَتَّى تَصِيرَ عَادَةً وَطَبِيعَةً وَسَجِيَّةً، وَتَعَاطُوا أَسْبَابَهَا وَهُوَ فِعْلُ الْأَمْرِ، وَتَجَنَّبِ الْمُنَاهِي، وَعَدِمِ الْإِنهَائِكَ فِي اللَّذَاتِ وَالِاسْتِرْسَالِ فِي الشَّهَوَاتِ، رَجَاءً أَنْ يَهَبَ مِنْ رِيَاحِ رَحْمَتِهِ نَفْحَةٌ تُسْعِدُكُمْ، أَوْ الْمَعْنَى: اطْلُبُوا الْخَيْرَ مُتَعَرِّضِينَ لِنَفَحَاتِ رَحْمَةِ رَبِّكُمْ بِطَلْبِكُمْ مِنْهُ..... وَفِي «الصَّحَاحِ» لِلْجَوْهَرِيِّ: «نَفْحٌ» الطَّيْبُ، أَي فَاحٌ وَنَفَحَتِ الرِّيحُ هَبَتْ، وَنَفْحَةٌ مِنْ عَذَابٍ قِطْعَةٌ. وَفِي «المُصْبَاحِ»: «نَفْحَةٌ بِالْمَالِ: أَعْطَاهُ، وَالنَّفْحَةُ الْعَطِيَّةُ. (فَإِنَّ لِلَّهِ نَفَحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) الْمُؤْمِنِينَ فَدَاوَمُوا عَلَى الطَّلْبِ فَعَسَى أَنْ تَصَادَفُوا نَفْحَةً مِنْ تِلْكَ النَّفَحَاتِ فَتَكُونُوا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَاتِ.» انْتَهَى بِتَصَرُّفٍ كَثِيرٍ وَاحْتِصَارٍ مِنَ الْفَيْضِ الْمَنَاوِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

فمن هنا كان ينبغي أن نُخصَّصَ حديثاً نُذَكِّرُ فيه بما ينبغي أن يكون عليه المرءُ هذه الأيام من الاستعداد لتلك المواسم، وتلك الرحمات؛ حتى يَمُنَّ اللهُ علينا بأن نكون من أهل الرحمة الذين تشملهم رحمةُ الله.

فقد أَرَفَ شهر شعبان، وهو شهر له خصوصيته عند النبي ﷺ، وله تعظيمه الذي ينبغي على المؤمنين أن يُعَظِّمُوهُ مثلما عَظَّمَهُ النبي ﷺ حيث أنه كان «يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ»^(١)، وفي رواية: «إِلَّا قَلِيلًا»^(٢)، وقال لما سُئِلَ ﷺ عن صيامه لشهر "شعبان": «ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ»^(٣)، وذلك التعظيم من النبي ﷺ كان له أسباب منها:

الأول: أن رمضان موسم المغفرة، وينبغي على كل أحد - يريد الله تعالى والدار الآخرة - أن يهتم لهذه المغفرة، وأن يبذل لها وسعه، وذلك لما هَيَّأَ اللهُ تعالى فيه من أسباب الرحمة والمغفرة والرضوان والعتق من النار.

-
- (١) البخاري (١٩٧٠)، ومسلم (١١٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها. وعن عائشة رضي الله عنها أيضا تقول: «كَانَ أَحَبَّ الشُّهُورِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَصُومَهُ شَعْبَانُ» أخرجه النسائي (٢٣٥٠) وأبو داود (٢٤٣١) وسكت عنه، وصحَّحه الشيخ ناصر الألباني في صحيح النسائي (٢٣٤٩). وعنهما أيضا في صحيح البخاري (١٩٦٩)، وبنحوه في صحيح مسلم (١١٥٦): «وَمَا رَأَيْتُهُ أَكْثَرَ صِيَامًا مِنْهُ فِي شَعْبَانَ»
- (٢) مسلم (١١٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.
- (٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥ / ٢٠١) مرفوعا إلى النبي ﷺ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه، قال الشيخ شعيب في التحفيق: إسناده حسن.

فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ

»^(١)

وقال: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٢).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ رَمَضَانَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الشَّهْرَ قَدْ حَضَرَكُمْ، وَفِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حُرِمَهَا فَقَدْ حُرِمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ، وَلَا يُحْرَمُ خَيْرَهَا إِلَّا مُحْرُومٌ»^(٣).

(١) متفق عليه: البخاري (٣٨)، مسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «قوله «إيماناً» أي تصديقاً بأنه - أي صومَ رمضان - حقٌ واطاعةٌ، قوله «واحتساباً» أي إرادةً وجه الله تعالى، لا لرياء ونحوه، فقد يفعل الإنسان الشيء الذي يعتقد أنه صادق، لكن لا يفعله مخلصاً، بل لرياء أو خوفٍ أو نحو ذلك، يُقال «احتساباً» أي حسبةً لله تعالى، يقال احتسبتُ بكذا أجرًا عند الله تعالى، والاسم الحسبة وهي الأجر، ... واحتسبتُ بكذا أجرًا عند الله، أي اعتدته أنوي به وجه الله تعالى، ومنه قوله عليه السلام من صام رمضان إيماناً واحتساباً». انتهى بتصرف من عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني. وقال الحافظ في الفتح: " قَالَ الْخَطَّابِيُّ: إِحْتِسَابًا أَي عَزِيمَةً، وَهُوَ أَنْ يَصُومَهُ عَلَى مَعْنَى الرَّغْبَةِ فِي ثَوَابِهِ، طَيِّبَةً نَفْسُهُ بِذَلِكَ، غَيْرَ مُسْتَقْبِلٍ لِصِيَامِهِ، وَلَا مُسْتَطِيلٍ لِأَيَّامِهِ". اهـ. وللمؤلف خطبة صوتية مهمة بعنوان «الاحتساب وأثره في تحقيق المغفرة» من سلسلة خطب رمضان ١٤٢٨ هـ التي بعنوان «رمضان وتحقيق المغفرة»، فارجع إليها للمزيد من الإفادة. والسلسلة متوفرة على الشبكة العنكبوتية للمعلومات الإنترنت).

(٢) متفق عليه: البخاري (٢٠٠٩)، مسلم (٧٥٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه ابن ماجه (١٦٤٤)، قال المنذري: (إسناده حسن إن شاء الله تعالى) اهـ الترغيب (١٤٩١) ط. العلمية. قوله ﷺ «إِنَّ هَذَا الشَّهْرَ» اسم الإشارة للتعظيم... «قد حضركم» أي فاغتنموا حضوره بالصيام في نهاره، والقيام في ليله، «وفيه ليلةٌ» أي ليلةٌ واحدةٌ مبهمَةٌ من لياليه، «خير من ألف شهر» أي فالتمسوها في كل ليلة رجاء أن تدركوها، «مَنْ حُرِمَهَا» أي حُرِمَ خيرها وتوفيق العبادة فيها، ومُنِعَ عن القيام ببعضها، «فقد حُرِمَ الخير كله، ولا يُحْرَمُ خيرها» أي حتى يتخلف عنها «إلا محروم». انظر -

بتصرف كثير: مرقاة المفاتيح. وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَتْهُ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ [القدر: ١-٥]. يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَهِيَ اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ الَّتِي قَالَ اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان: ٣] وَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَهِيَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: أَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ جَمَلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ مُفَصَّلًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُعْظَمًا لِشَأْنِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، الَّتِي اخْتَصَمَهَا بِإِنزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِيهَا، فَقَالَ: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿١﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يَقُومُ اللَّيْلَ حَتَّى يَبْصُحَ، ثُمَّ يُجَاهِدُ الْعَدُوَّ بِالنَّهَارِ حَتَّى يَمْسِيَ، ففعل ذلك ألف شهر، فأنزل الله سبحانه هذه الآية: ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾؛ قِيَامُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ ذَلِكَ الرَّجُلِ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا: لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. قَالَ: عَمَلُهَا؛ صِيَامُهَا وَقِيَامُهَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿ تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أَي: يَكْثُرُ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لِكثْرَةِ بَرَكَتِهَا، وَالْمَلَائِكَةُ يَنْزِلُونَ مَعَ تَنْزِيلِ الْبَرَكَةِ وَالرَّحْمَةِ، كَمَا يَنْزِلُونَ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَيُحِيطُونَ بِجَلْقِ الذِّكْرِ، وَيَضَعُونَ أَجْنِحَتَهُمْ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِصَدَقِ تَعْظِيمِهَا لَهُ. وَأَمَّا الرُّوحُ فَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ هَاهُنَا جِبْرِيْلُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ. وَقِيلَ: هُمْ ضَرَبٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ "النَّبَأِ". وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: سَلَامٌ هِيَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: ﴿ سَلَّمَتْهُ هِيَ ﴾ قَالَ: هِيَ سَالِمَةٌ، لَا يَسْتَطِيعُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهَا سُوءًا، أَوْ يَعْمَلَ فِيهَا أَدَى. وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: تُقْضَى فِيهَا الْأُمُورُ، وَتُقَدَّرُ الْأَجَالُ وَالْأَرْزَاقُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾. وَعَنْ الشَّعْبِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿١﴾ سَلَّمَتْهُ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٢﴾ ﴾ قَالَ: تَسْلِيمُ الْمَلَائِكَةِ لَيْلَةَ الْقَدْرِ عَلَى أَهْلِ الْمَسَاجِدِ، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ. انْتَهَى بِتَصْرِيفٍ كَثِيرٍ وَاخْتِصَارٍ مِنْ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى؛ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقَدْرِ.

وزاد: « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »^(١).

وله في كل ليلة عتقاء حتى إذا كان في آخر الشهر أعتق بعدد ما أعتق في

الشهر كله، وأن الصائم دعوته لا ترد كما قال ﷺ:

«ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ لَا تُرَدُّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الصَّائِمِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ»^(٢).

وقد أعان المؤمنين على تحقيق ذلك بقوله: «إِذَا كَانَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ

رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ،

وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا

بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ. وَلِلَّهِ عِتْقَاءٌ مِنَ النَّارِ وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ»^(٣).

(١) متفق عليه: البخاري (٢٠١٤)، مسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) رواه البيهقي في الكبرى عن أنس بن مالك ؓ مرفوعاً (ح: ٦٦٢٠) - مجلس دائرة المعارف النظامية

- حيدر آباد - ط ١، قال النووي في خلاصة الأحكام: إسناده صحيح على شرطها. اهـ (ح: ٣٠٨٠)

مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

(٣) رواه الترمذي واللفظ له (٦٨٢) وقال: غريب، وابن خزيمة في صحيحه بنحوه (١٨٨٣)، وابن

حبان (٢٢١/٨) وقال الشيخ شعيب في التحقيق (إسناده قوي)، والحاكم في المستدرک (١٥٣٢) وقال:

(حديث صحيح على شرط الشيخين. قال الحافظ رحمه الله تعالى: «وَقَوْلُهُ " صُفِّدَتْ " ... أَيُّ شُدَّتْ

بِالْأَضْفَادِ؛ وَهِيَ الْأَغْلَالُ، وَهُوَ بِمَعْنَى سُلِّسِلَتْ.. وَفِي تَصْفِيدِ الشَّيَاطِينِ فِي رَمَضَانَ إِشَارَةٌ إِلَى رَفْعِ عُدْرِ

الْمُكَلَّفِ، كَأَنَّهُ يُقَالُ لَهُ: قَدْ كُفَّتِ الشَّيَاطِينُ عَنْكَ فَلَا تُعْتَلِّ بِهِنَّ فِي تَرْكِ الطَّاعَةِ وَلَا فِعْلِ الْمُعْصِيَةِ.» اهـ من فتح

الباري. «صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ» المرادة جمع مَرِدٍ كَطَلْبَةٍ وَجَهْلَةٍ، وَهُوَ - أَيُّ الْمَارِدِ - الْمُتَجَرِّدُ لِلشَّرِّ،

وَمِنْهُ الْأَمْرُ لِتَجَرُّدِهِ مِنَ الشَّرِّ، وَهُوَ - أَيُّ الْعَطْفِ - تَخْصِيصٌ بَعْدَ تَعْمِيمٍ، أَوْ عَطْفٌ تَفْسِيرٌ وَيَبَانٌ كَالتَّسْمِيمِ .

وَقِيلَ الْحِكْمَةُ فِي تَقْيِيدِ الشَّيَاطِينِ وَتَصْفِيدِهِمْ كَمَا لَا يُوسُوسُوا فِي الصَّائِمِينَ . وَأَمَارَةٌ ذَلِكَ تَنْزُهُ أَكْثَرَ الْمُتَهَمِّكِينَ فِي

الطُّغْيَانِ عَنِ الْمُعَاصِي وَرُجُوعِهِمْ بِالتَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.» اهـ من تحفة الأحوذبي بتصرف كثير. «وَعُلِّقَتْ أَبْوَابُ

ومن ثمَّ لم يكن عذرٌ حينئذٍ لأحد فقال ﷺ حاكياً عن جبريل عليه السلام: «مَنْ آتَى عَلَيْهِ رَمَضَانُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ أْبَعَدَهُ اللهُ، أَدْخَلَهُ النَّارَ . قُلْ آمِينَ . فَقُلْتُ: آمِينَ» (١).

والسبب الثاني: تعمير أوقات غفلة الناس بالطاعة والعمل الصالح الذي يرفع الله تعالى به البلاء عن بقية المؤمنين.

وهو الأمر التالي الذي ينبغي على أهل الإيمان أن يهتموا به؛ أن "شعبان" فُتِحَ ليتحمل المؤمنون مسئوليتهم فيه من العمل الصالح الذي يرفع الله تعالى به البلاء عن بقية المؤمنين، فمسئولية المؤمنين أمام الله تعالى، ومسئوليتهم تجاه أممتهم، وحفظ دينهم مسئولية عظيمة، وهي في محل الخطر؛ لأن ما نزل بغيرهم من المؤمنين المقصرين في أقطار الإسلام الأخرى من هلاك أو استضعاف أو بلاءٍ أو شدة يوشك

النَّارِ فَلَمْ يَفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ» ... فيه إشارة إلى أن الأزمنة الشريفة والأمكنة اللطيفة لها تأثيرٌ في كثرة الطاعة وقلة المعصية، ويشهد به الحس والمشاهدة، لتعنتم الفرصة، ويشير إلى هذا المعنى قوله: «وينادي مناد» أي ... ببيان المقال من عند الملك المتعال «يا باغي الخير» أي يا طالب العمل والثواب «أقبل» أي إلى الله وطاعته بزيادة الاجتهاد في عبادته وهو أمرٌ من الإقبال، أي تعال فإن هذا أو أنك؛ فإنك تُعطى الثواب الجزيل بالعمل القليل، أو معناه: يا طالب الخير المعرض عنا وعن طاعتنا أقبل إلينا وعلى عبادتنا، فإن الخير كله تحت قدرتنا وإرادتنا، «ويا باغي الشر» أي يا مُريد المعصية ... أي أمسك عن المعاصي، وارجع إلى الله تعالى؛ فهذا أوان قبول التوبة وزمان الاستعداد للمغفرة. ولعل طاعة المطيعين وتوبة المذنبين ورجوع المقصرين في رمضان من أثر النداءين، ونتيجة إقبال الله تعالى على الطالبين... «ولله عتقاء» أي كثيرون من النار، فلعلك تكون منهم «وَدَلَّكَ كُلَّ لَيْلَةٍ» اهد بتصرفٍ يسير من مراقبة المفاتيح للملا على القاري رحمه الله تعالى.

(١) من حديث أبي هريرة، رواه ابن حبان (١٨٨/٣) في صحيحه، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

أن ينزل بهم؛ لأن ما نزل بغيرهم إنما نزل لنفس الأسباب التي يقعون هم فيها في هذه الأيام، فيوشك أن يكون شأنهم نفس الشأن، ويوشك أن يكون مصيرهم نفس المصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله، عيادًا بالله من ذلك.

وإذا كان المؤمنون ينبغي أن يكونوا مُستعدين على كل حال فإنهم في تلك الأيام من أيام المغفرة ينبغي أن يَسْتَعِدُّوا من أول يوم في شعبان ، لأن أيام المغفرة تأتي لِيَزِدَادُوا فيها استعدادًا، وَلِيَزِدَادُوا فيها عملًا، وليزدادوا بها قُرْبًا من الله ، وليزدادوا فيها اجتهادًا، فمن كان مقصّرًا أقلع، ومن كان مستقيمًا ازداد، ومن كان مُتَهَيِّئًا للرحمة إذا به يزداد من تلك الرحمة، ومن هذا التقرب إلى الله تعالى.

فإذا لم يحاول المؤمنون المهتمون اليوم أن يقوموا بتلك المسئولية الضخمة وبهذه الأعباء فَمَنْ يقوم بها؟!

وإذا لم يبلوا البلاء الحسن ، وإذا لم يدفعا هُم فمَنْ يَدْفَعُ ومن يبلي؟!
وإذا لم يجتهدوا في القيام بتلك الأوامر النبوية من التحقق بأسباب المغفرة
فمن يجتهد؟!

وإذا ظلَّ الاجتهادُ هو مشكلةُ المؤمنين وعقدتهم... وظلت نواياهم غيرَ معقودة عليه، ولا مُهْتَمَّةٍ به حتى في تلك المواسم من مواسم المغفرة، فمتى تنعقد تلك النوايا على الاجتهاد؟

جاء "شعبان" إذن ليتعلم فيه المرء هذا الاجتهاد وليكون هو المُقَدِّمَةَ لتلك المغفرة التي ينبغي أن يستعد المؤمنون لها الاستعداد الجيد -الذي طالما قَصَّر- فيه

المؤمنون- وقالوا قولهم المعتاد الذي نسمعه كل عام بعدما خرجوا من رمضان كما دخلوا فيه: «إن شاء الله من العام المقبل سوف نحاول، وسوف نبدأ، وسوف نُعدُّ أنفسنا من أول يوم، وسوف لا يضيع علينا "رمضان" كما ضاع من قبل!» وكذا، وكذا مما نسمع من هذه الأماني، وتلك العهود التي يُعاهدُ المؤمنون ربهم وأنفسهم أن يتحققوا بها، وأن يلتزموا بمقتضاها، وأن يُوفِّقوا بها لله تعالى.. ثم يعودوا سيرتهم الأولى السيئة المعلومة! فكم من قائل إنه سيبدأ وسيحاول، ثم تغلبه نفسه أو يغلبه شيطانه، وينقض عهده مع الله!

وقد أضافت هذه العهود السابقة سببا ثالثا للاهتمام بشهر شعبان.

السبب الثالث: الوفاء بعهد المؤمنين مع الله من الاستعداد لرمضان

فقد كان المؤمنون عندما انقضى- "رمضان" الماضي، والذي قبله، والذي قبله، يقولون: من الذي حصَّل المغفرة؟ من الذي حصَّل العِتق من النَّار؟

يَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ الْمُقْبُولُ فَتَنْهَيْهِ وَمَنْ الْمُرْدُودُ فَتَنْعِزْهُ

ثم خرج المؤمن من رمضان وعاد فجأة إلى دنياءه، وإلى كَسَلِهِ، وإلى غَفَلَتِهِ، وإلى بُعْدِهِ، ولم تُعدُّ حاله كما كانت على هذه الأحوال الحسنة في "رمضان" فإذا به يَتَحَسَّرُ على ذلك، وَيَجْزُن لما صار إليه فجأة بعد أن كان في حالة عالية، وأحوال سَنِيَّة، وأعمال رَضِيَّة، إذا به ينتقل إلى العكس، وكأنه لم يكن في "رمضان"! فلا قيام، ولا صيام، ولا ذِكر، ولا قرآن، ولا شيء. وإن كان نَمَّ شيء من ذلك فهو قليل متقطع شملته الغفلة. ثم يُعاهد ربَّه أن يعوض ذلك في شعبان القادم، وأنه سيبدأ فيه من أول يوم.

فهؤلاء قد أتاهم "شعبان" ليكون الموسم الذي فتحه الله جل وعلا لهم ليدركوا هذه العهود، وليكون مقدمة "الرمضان" لِيُتَّقَدُوا عهودهم، لِيُؤْفُوا بما عاهدوا الله تعالى عليه؛ لِيُثَبِّتُوا أنهم مُتَحَمِّلُونَ لتلك المسئوليات، وأنهم لن يَقْصُرُوا فيما قصرُوا فيه من قبل، وإنما قد جاءتهم الفرصة لِيُرُوا ربهم سبحانه وتعالى، أنهم حقًا يريدون مغفرته، وأنهم حقًا يريدون أن يعتقهم من النار، وأن يخرجهم من الحالة الراكدة التي هم فيها، ليخرجهم من ذلك كله ﷺ؛ بعفوه، وفضله وَمَنَّهُ إلى حال أحسن، وإلى موسم أعظم، وإلى تلك المقامات السامية مع الله تعالى التي يرضى عن عباده فيها.

جاء هذا الموسم ليحقق لهم ما فات عليهم في المواسم السابقة، ها قد فتح الله تعالى في أعمارهم؛ كانوا يتمنون بعد "رمضان" ماضٍ، لويأتي عليهم "رمضان" آخر، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ»^(١)، ها قد جاء وقتهم ليؤفوا بعهودهم.. تُرَاهم يوفون؟! هُمُ بين أمرين: إمَّا أن يكونوا كسابق عهدهم، وإمَّا أن يُؤْفُوا مع الله تعالى لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُ يمكن أن لا يعود عليهم رمضان مرة أخرى.

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٥) وقال: "حديث حسن غريب"، وابن حبان في صحيحه (١٨٩/٣) قال الشيخ شعيب في التحقيق: (إسناده صحيح على شرط مسلم) اهـ، كلاهما يروييه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. قال المنذري: (رَغِمَ - بكسر الغين المعجمة - أي لصق بالرغام وهو التراب ذلاً وهوأنا، وقال ابن الأعرابي: هو يفتح الغين ومعناه: ذل) اهـ من الترغيب (ح: ٢٥٩٦).

مَنْ الذي يضمن أن يعود عليه "رمضان" مرةً أخرى؟ ولو عاد إليه مَنْ الذي يضمن أن يُفتح له باب القبول خاصة وأنه لم يُوفَّ من قبل، وقد خدعه الشيطان ومناه أنه سيكون في رمضان أحسن مما كان في ذي قبل، ولم يحدث ذلك؟! مَنْ الذي ضَمِنَ قلبه؟ وَمَنْ الذي ضمن أن يفتح الله تعالى له بابه؟! وقد رآه متكاسلاً؛ رآه يَدْفَعُ نعمة الله تبارك وتعالى، ويُعْرِضُ عنها، ولا يأخذها بقوة. هو قد أَعْرَضَ عن هذه الرحمة، وعن تلك المغفرة ولم يبالي بها، وأخذها بهذا التكاسل، وهذا التواني، وهذا الضعف.. ثرأ بعد ذلك يفتح الله تعالى له؟!!

لذلك كان أول ما ينتظره المؤمنون من هذا الشهر هو الاستعداد لرمضان كموسم من مواسم المغفرة، فإنهم يعلمون إنهم إن لم يستعدوا لهذا الشهر كما كان حال النبي ﷺ وأصحابه، فإنَّ رمضان سينقضي- عليهم كما انقضى- غيره من قبل، ويخرجون منه بالحسرة، ويخرجون منه بالحزن والألم، ويخرجون منه على الحال التي لا يمكن أن تتحقق بها المغفرة كما قال ﷺ فيها: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١).

فَمَنْ الذي أحسَّ بهذه المغفرة بعد رمضان في الأعوام الماضية؟

ومن الذي أحسَّ بهذا العتق من النار بعد رمضان؟

وَمَنْ الذي أحسَّ برحمة الله تعالى تنزل عليه فينتقل مما هو فيه إلى الحال

الحسن، وإلى استقامة أشد على طريق الله تعالى؟

مَنْ الذي أحسَّ بذلك كله؟!!

(١) أخرجه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة ؓ.

الفصل الثاني:

وظائف المؤمنين في شعبان



- ١- صيام شهر شعبان.
- ٢- تعمير أوقات الغفلة بالطاعات، والقرب إلى الله تعالى.
- ٣- مجاهدة النفس على الطاعات.
- ٤- تجهيز أحسن الأعمال لرفعها إلى رب العالمين.
- ٥- تحصيل مغفرة الزبأ في ليلة النصف من شعبان.
- ٦- الانكباب على كلام الله تعالى وإدمان تلاوته.
- ٧- التهجد وطول القيام.

وأحاديث النبي ﷺ التي ذكرنا هي مدخلنا إلى الكلام عن هذه الوظائف ليفهم منها المؤمنون حل مشكلتهم وعقدتهم في الاجتهاد ولتعلموا مواضع الاستعداد لـ "رمضان" ومواسم المغفرة، وأهمية الدفع عن المؤمنين وتحمل المسؤولية التي أنيطت بهم، وخطر تعويض واستدراك ما فات مما كانوا يُمنون أنفسهم به والوفاء بعهدهم مع الله.

قال ﷺ: «ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَأَحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ»^(١).

وكأنَّ "رجب" و"رمضان" من الشهور التي يُعظمها المؤمنون، ثم يغفلون عن "شعبان"، وهذه هي الحال التي نحن فيها، فما أن يأتي "شعبان" حتى يترك الناس الاجتهاد والطاعات ويقصرون فيها - وهم مقصرون أصلاً - يقول القائل لنفسه: «ها قد أوشك "رمضان"، وإن شاء الله في "رمضان" تُعوّض ذلك كله، وإن شاء الله في "رمضان" يكون اجتهادك زائدًا...»، ويظل يفتح له الشيطان باب التمني والأمل حتى يقعد عن العمل في "شعبان"، وحتى يتكاسل عنه!

وذلك ما تميل إليه النفس؛ لأنه كلما اقتربت تلك المواسم ضَعُفَت النَّفْسُ عن العمل؛ لأنها بتسويقها تظن أنها ستُعوّض ذلك في "رمضان"، فإذا جاء "رمضان" على هذه النفوس الضعيفة، وعلى هذا الإقبال الضعيف على الله تعالى لن يجدي "رمضان" شيئاً؛ أتاها وهم خائبون، فانصرف عنهم وهم كذلك، فعادوا إلى الخيبة والخسارة التي نراها كل عام، إلا من رحم الله تعالى.

(١) سبق تخريجه في الحاشية . انظر ص ١٠.

فَلْيُشَدِّ أَهْلَ الْإِيمَانِ إِذَا عَلَى عِزْمِهِمْ، وَلْيُوَثِّقُوا عَهْدَهُمْ، وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ،
وَلْيَتَّقُوا لِفَوَاتِ عُمْرِهِمْ، فَالْعَمْرُ يَمْرٌ بِأَسْرَعٍ مِمَّا نَتَخِيلُ: فَقَدْ كُنَّا نَتَكَلَّمُ عَنْ قَرَبِ
مَجِيءِ رَمَضَانَ السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ وَجَاءَ وَرَحَلَ، كَأَنَّهُ بِالْأَمْسِ الْقَرِيبِ، وَإِذَا "بِرَمَضَانَ"
التالي يوشك أن يعود؛ عام كامل قد مرَّ، تُرَاك حَاسِبَت فِيهِ نَفْسُكَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ؟

إذن لقد علمت كم كانت خسارتك فيه، وكم ضيَّعتَ فيه من أنفاس وأيام وشهور، وكم ضيَّعتَ ذلك كله في عدم تحصيل شيء في معادك، وتحقيق أسباب نجاتك، وقد علمت أنك موقوف، ومسئول، فقد قال النبي ﷺ: « لَا تَزُولُ قَدَمًا عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ: فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ: فِيمَا فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ: مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ: فِيمَا أَبْلَاهُ؟ »^(١). فلن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن شبابه وعن عمره وعن ماله أين ضيَّعَ ذلك كله؟ وكأنَّ عمرك لا يساوي شيئاً، وكأنَّك لن تُسأل عنه، وكأنه شيء لم يفتححه الله تعالى لك لتزيد به من حسناتك، ولتأخذ به في تثقيل موازينك، ولتُقْبَلَ به على ربك؛ خشية أن يأتيك الموت، وأنت على هذا الحال!

وكانَّك من كَثْرَةِ مَا أَمَدَّكَ الشَّيْطَانُ فِي الْأَمَلِ، وَأَنْسَاكَ بَغْتَةَ الْأَجْلِ، وَأَنْسَاكَ قُرْبَ الْمَوْتِ وَالرَّحِيلِ، كَأَنَّكَ بِمَأْمَنٍ أَنْ تَنْتَقِلَ إِلَى الرَّبِّ الْجَلِيلِ وَأَنْ تَرْحَلَ إِلَيْهِ، وَأَنْ تُحَاسِبَ بَيْنَ يَدَيْهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

(١) رواه الترمذي من حديث أبي برزة الأسلمي ؓ مرفوعاً، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح

الوظيفة الأولى: صيام شهر شعبان



طرق مواجهة كيد الشيطان لمنعك من الصوم:

- التوكل على الله .
- أن تجعل المغفرة هدفك.
- أن تدخل على أعمال الإيمان دون أن تهتمك العواقب.

«كان النبي ﷺ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ»^(١)، وهذه الوظيفة الأولى التي يتفكر فيها

المؤمنون اتباعاً للنبي ﷺ، واهتداءً بهديه، أن يصوموا شعبان إلا قليلاً، إلا يوماً أو يومين، أو أن يصوموا "شعبان" كله لمن اعتاد صيام هذه الأيام. واسمع أوّل العقبات التي تشيك عن ذلك لتستعد لها:

سوف يأتيك الشيطان ليقول لك: «إذا صُمْتَ "شعبان" كله ستضعف

عن صيام "رمضان"، ولن تتمكن من أن تقوم ببقية مصالح ووظائف "رمضان"» ليعوقك عن أن تقوم بتلك الوظيفة، والاهتمام بها، حتى لا تعد نفسك، وقلبك، وروحك، وبدنك لصيام "رمضان" .. للمغفرة .. للعتق من النار، إذ ذاك أصعب شئ على الشيطان أن يراك مقبلاً طائعاً.

ماذا يُصيب المرء مثلاً إذا صام "شعبان" وصام "رمضان"؟؟ كأنه سيحدث

لَهُ مَا لَمْ يَحْدُثْ مِنَ الْآفَاتِ وَالْأَوْجَاعِ، أَوْ مِنْ تَضْيِيعِ الْعَمْرِ، أَوْ مِنْ ذَهَابِ الْمَالِ، أَوْ مِنْ تعطيل المصالح!

كل ذلك تخويف الشيطان، وتسويله الذي ينبغي أن تحذّر له من أول الأمر، سيأتيك الشيطان بكل الموانع، وبكل العقبات وبكل المعوقات التي تصدك عن أن تقوم بهذه الوظيفة، ولست أيها المسكين وأنت شاب فارغ من مشاغل الدنيا، ومن مشاغل الدين كذلك أن تتكاسل وتضعف عن القيام بهذه الوظيفة.

النبي ﷺ - على عِظَمِ مشاغله من "الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة، والقيام بمصالح المؤمنين، والقيام على معاشهم وعلى تعليمهم وفقهِهِمْ فِي سَفَرِهِمْ وَحَضْرِهِمْ - كل ذلك لم يمنعه، لماذا؟ لأنه متوكل على الله،

(١) البخاري (١٩٧٠)، ومسلم (١١٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قويُّ به، مدده منه سبحانه وتعالى، محبُّ لعبادته لا يستثقلها ولا يملها، له أعظم الأشواق لله والآمال فيه.

ليتوكل المرء على الله إذن؛ ويجعل له هدفاً يريد أن يصل إليه، وهو أن يغفر الله له في "رمضان"، ويعلم أن المغفرة التي يود أن يحصلها معها بذل لها

فذلك شيء قليل، ولو صام عمره كله لم يكن شيئاً كثيراً ليحصل به مغفرة الله تعالى. وليعلم أنه مهما أقبل على الله تعالى وتوكل عليه في ذلك فإن الله حسبه، فإن الله يكفيه. إن المشاغل التي سيعوّقك بها الشيطان من الضعف، ومن المصالح، ومن السفر، ومن كذا، وكذا.. الله تعالى يكفيك إياها كما قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦]، فإذا ما تيقن المرء أن الله تعالى يكفيه، وأن الله تعالى قادر، وقوي على أن يعينه في تحصيل هذه الوظائف، فسيعينه عليها، ولكن كيف يحصلها؟!

الجواب: أن يدخل المرء على أعمال الإيمان دون أن تهمه عواقبها، لأن عواقبها بيد الله وهي عواقب محمودة؛ ولأن الله -تبارك وتعالى- إذا فتح له باب طاعة هيأه لها، وإذا فتح له باب المغفرة هيأه لها، وقواه عليها، وأمدّه بمددِهِ، فكيف تخشى إذن أن يحدث لك كذا وكذا والله تعالى معك، والله تعالى مؤيدك، وموفقك أيها المسكين؟!

لما كان موسى وهارون عليهما السلام في سُغْل الله تعالى وخشيا العاقبة بقولهما: ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا لَمُخَافُونَ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ [طه: ٤٥] قال لهما الربُّ ﷻ: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٥]، فكان في سُغْلها لما كانا في سُغْل الله تعالى.

لذلك: ينبغي أن يتعلم المرء هذه القضية في كل قضايا الإيمان، والعمل الصالح؛ ألا يلتفت إلى تخويف الشيطان ومعوقاته وأنه سيقع له كذا وكذا. لا،

ولكن يتذكر قوله تعالى ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦]، يُذَكِّرُ بِهَا نَفْسَهُ وَيُقَوِّي بِهَا قَلْبَهُ.

وقد قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ «إِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْسِيهِ أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً»^(١). فهل ستتقرب إليه بهذه الأنواع من أنواع القُرْبَاتِ ثم يحجب عنك مدده، وقوته، وقدرته، وعونه، وتوفيقه، وتسديده؟! لا.. بل على العكس.

إذا ما تقربت إليه بتلك القربات فأنت في محل التوفيق، ومحل المدد من الله تعالى، ومحل العَوْنِ والإصابة والسداد، محل أن تكون هذه العواقب الحسنة كلها قد היאها الله تعالى لك فلا تخش حينئذ شيئًا. قد ورد عن النبي ﷺ أنه كان يقوم الليل كله، يدعو، ويتأشُدُّ ربه، ثم يصبح ليجاهد المشركين وليقاتلهم كما رأينا في غزوة بدر.

فهذا هو مقتضى التوكل الذي يدفعك إلى المعنى الثاني الذي قد فُتِحَ له

"شعبان" وهو معنى: **المجاهدة.**

معنى المجاهدة:

أنتَ مطلوب منك أن تُجاهِدَ نَفْسَكَ أَشَدَّ المِجَاهِدَةِ، وَسَيُقَعِدُكَ الشَّيْطَانُ مَتَعَلِّلاً بضعف بدنك، وقلة وقتك، وكثرة مشاغلك، وأسفارك، وعملك، ومالك، وولدك، كل ذلك يضعفك به.

أمامك هذا الطريق الذي يدفع الله تعالى به عنك، وَيُخَفِّفُ عَنْكَ، وَيُقَوِّيكَ فِيهِ، وهو أن تُجاهِدَ نَفْسَكَ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنْ تَصُدَّ عَنْكَ هَذَا الكَيْدَ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ؛

(١) أخرجه البخاري (٧٥٣٦)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أنس ؓ.

بتوكلك، وقوتك بالله، ومددك بالله، وعونك بالله، وتوفيقك بالله، وصحتك بالله، وكل ذلك بالله ﷻ، وإذا كان بالله فمن يكون عليه؟ لا يكون عليه أحد، ولا يتمكن منه أحد، ولا يضعفه شيء كما قال ﷻ: «مَا ظَنُّكَ بِإِنِّي اللَّهُ تَالِثُهُمَا»^(١)، وقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] .

فَفُتِحَ إِذَا: باب "شعبان" لهذه المجاهدة التي قال الله ﷻ فيها: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فقوي عزمك، وارتفعت همتك، وبدأت وأنت مؤمل أن تجاهد نفسك، وشيطانك وهواك، وأن تعلم أن النصر القريب فيها لأهل الإيـان، وأن النصر القريب فيها للتوكل واليقين، وأن تعلم أن الطاعة في الدنيا إنما هي صبر ساعة، وأنه مهما قمت لها فإن الله يحفظك كما قال ﷻ: «احفظ الله يحفظك»^(٢) وكما قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [عبد: ٧] .

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) من حديث أبي بكر ﷻ .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وقال "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ"، وتمام نص الحديث للفائدة:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷻ قَالَ: ((كُنْتُ خَلَفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ « يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ: أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَحِجَّهُ مُجَاهَاكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعْنِي بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ ») وفي رواية أخرى في مسند الإمام أحمد (٣٠٧/١) و صححها الشيخ شعيب في التحقيق: « أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَحِجَّهُ أَمَامَكَ، تَعْرِفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعْنِي بِاللَّهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ

الفصل الثاني: وظائف المؤمنين في شهر شعبان

حال المؤمنين في شعبان

فها قد بدأت في تلك المعركة مع الشيطان فاستعد لها كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ

الشَّيْطَانَ لَكْرَءٍ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦٠].

أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكَرَّرَ خَيْرًا كَثِيرًا ،
وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكُرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا »

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في شرح هذا الحديث: (وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين ، حتى قال بعض العلماء: "تدبرْتُ هذا الحديث ، فأدهشني وكِدْتُ أَطِيشُ ، فَوَأَسْفَى مِنَ الْجَهْلِ بِهَذَا الْحَدِيثِ ، وَقِلَّةِ التَّفْهَمِ لِمَعْنَاهُ")اهـ من جامع العلوم والحكم. ولأهمية هذا الحديث العظيم شرحه المؤلف في ستة دروس كاملة منذ أكثر من ست سنوات ، و قد طُبِعَ تَفْرِيفٌ مَهْدَبٌ لِهَذِهِ الدَّرُوسِ .

الوظيفة الثانية: تعمير أوقات الغفلة بالطاعة



- كيف يغفل المؤمنون عن ربهم؟!!
- شأن المؤمنين القرب من الله.
- فوائد إعمار أوقات الغفلة بالطاعة:
- الفوز بمحبة الله سبحانه وتعالى:
 - القيام في نصف الليل الآخر.
 - القيام حال كون النوم أحب إليك مما سواه.
 - القيام ما بين المغرب والعشاء.
- دفع البلاء النازل على النفس وعلى الأمة.
 - مسئولية المؤمنين في دفع البلاء النازل الآن على إخوانهم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.
- تحصيل الأجور المضاعفة.

كيف يغفل المؤمنون عن ربهم !!؟

نعود إلى قوله ﷺ: «يغفل عنه النَّاسُ» معناه: أن المؤمنين مُطالبون بأن يُعَمِّرُوا أوقات الغفلة بأعمال الذكر، والقربُ إلى الله تعالى وألا يكونوا مع الغافلين كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

لما غفل عنه النَّاسُ لم يكن للمؤمنين أن يغفلوا عنه؛ لأنَّ المؤمنين متيقظون، حَذِرُونَ من ناحية..

ومن ناحية أخرى: أن المؤمنين مقبلون على ربهم دومًا؛ لأنَّهم لا ينقطعون عنه، وإن انقطعوا عن ربهم، وغفلوا عن ذكرهم ماتوا.. ماتت قلوبهم، وضلت أفئدتهم وبعُدوا عن طريق ربهم.

لذلك يصعب على المؤمنين أشد الصعوبة أن يغفلوا عن ربهم، وأن يتكاسلوا عنه، أو يتعدوا عن طريقه، فكأنما خرجوا إلى الموت، لقد خرج أحدهم إذن عن طريق ربه الذي يحفظه ويرزقه ويقويه، فلا بد أن يقدم عليه وأن يرجع إليه، وليس له عنه بُدُّ سبحانه وتعالى؛ فهو ربه، وهو حبيبه، وهو الذي يُرِيَّيه، ويُراعي إيمانه، وهو الذي يُمُدُّه بأسباب النجاة، وهو الذي ينتظره في الآخرة؛ لِيُسْكِنَهُ جَنَّتَهُ مع النبيين والصدّيقين والشهداء، فكيف يبعد عنه المرءُ؟! أو كيف يغفل عنه؟! أو كيف ينسى ربَّه سبحانه وتعالى!؟

إن خرج عن ذكره وطاعته كان كالسمك إذا خرج من الماء.. خرج إلى الموت. تلك هي عاقبة الغفلة عن الرب والابتعاد عن طريقه سبحانه وتعالى.

والمؤمنون اليوم مع الأسف لا يُحْسُون بهذا الموت، لا يُحْسُون بضعف الحياة كما قال تعالى: ﴿ أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقد انصرفوا إلى حياتهم وأولادهم وأموالهم وشهواتهم وقدموا ذلك كله على ربهم، فكان ذلك سببَ هُومٍ عنه وشقائهم وخسرانهم كذلك. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المتفكرون: ٩].

ويعلمون أنه هو سبحانه وتعالى الذي يُصْلِحُ أحوالهم، وهو الذي يُدَبِّرُ معاشهم، وهو يُوسِّعُ أرزاقهم، وهو الذي يكفيهم كلَّ ما أَهْمَهُمْ في أمور دينهم وديارهم، فكيف يلجئون إلى عدوه؟! كيف يغفلون عنه؟! كيف ينامون عن طاعته سبحانه وتعالى؟! كيف يتكاسلون عن طريقه؟! وطريقه هو حياتهم ونجاتهم ... وطريقه هو محبتهم له وقرابهم منه ... وطريقه هو علوهم وارتفاعهم ... وطريقه هو كل أملهم في الدنيا والآخرة.

شأن المؤمنين القرب من الله تعالى والوقوف ببابه:

قوله ﷺ: ((ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَأَجِبْ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ))^(١).

وكان النبي ﷺ يُبَيِّنُ للمؤمنين أنهم لا ينبغي أن يغفلوا حين يَغْفُلُ النَّاسُ عن الله تعالى، بل لا بد أن يكونوا متيقظين لربهم سبحانه وتعالى، غير غافلين عنه جلَّ

(١) سبق ترجمته. انظر الحاشية ص (١١).

وعلا، مقبلين عليه حال إعراض النَّاسِ، ذاكرين له حال غفلة النَّاسِ، مهتدين بهدأيته حال ضلال النَّاسِ. لهم شأن، والنَّاسُ لهم شأن آخر.

شأنهم : القرب من الله تعالى، والوقوف ببابه، والتضرع له. والدعاء،

والذكر، والبكاء، والتذلل، والانكسار إلى ربهم في كل حين، لا يخرجون عن ذلك

طرفة عين. وإذا خرجوا فذلك هو الخذلان المبين. فأشواقهم لمحبتة ... ونعيمهم

ولذتهم وشهواتهم في طاعته.

فوائد إعمار أوقات الغفلة بالطاعات :

وعمارة أوقات الغفلة بأعمال الإيثار والطاعة لها فوائد التي ينبغي أن

يُحَصِّلَهَا المؤمنون اليوم استعدادًا لذلك الشهر الكريم الذي يُعِدُّون أنفسهم فيه لرحمة الله .

فما هي فوائد تعمير أوقات الغفلة بالطاعة؟

الفائدة الأولى: الفوز بمحبة الله سبحانه وتعالى:

أوّل هذه الأمور - وإن كنا نريد أن نشير فقط إلى معانٍ مهمة فيها - هو:

أنّه عندما يغفل بعض النَّاسِ عن الله تعالى ، ويذكره ويقبل عليه آخرون،

فإن هؤلاء الآخرين - الذاكرين والمقبلين - يكونون هم محل محبته سبحانه وتعالى.

يعني: إن أوّل شيء يحصله هؤلاء المعمرّون لأوقات الغفلة بالذكر،

والعمل، والإقبال على الله تعالى أن ينالوا محبة الله سبحانه وتعالى.

لذلك: رأينا النبي ﷺ في أحاديث كثيرة يحض المؤمنين على تعمير أوقات الغفلة بالذكر ليحصلوا أعلى درجات الدين والتي هي محبة الله سبحانه وتعالى.

ومن ذلك: ما ذكره ﷺ في نصف الليل الآخر: «فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ»^(١)

يعني: وقت هدوء النَّاسِ، ونومهم، وشهواتهم إذا بالنبي ﷺ يُوقِظُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، وينبههم على أنهم ينبغي أن يَتَخَلَّوْا عَنْ تِلْكَ الشَّهَوَاتِ مِنْ "النَّوْمِ وَالِدَعَةِ وَالرَّاحَةِ وَالْأَهْلِ" ليقوموا إلى الشهوة العظمى والراحة القصوى، وهي محبة الله تعالى التي يُؤَثِّرُوْنَهَا عَلَى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْمَالِ، وَالْأَهْلِ وَالْوَالِدِ..

فإن استطعت أن تكون ممن يذكرون الله في هذه الساعة فكن، أي في جوف الليل الآخر، وهو الذي يغفل عنه النَّاسُ اليوم - المؤمنون وغيرهم - بأن يذكروا الله تعالى فيه: هو موضع محبة الله تعالى.

وكذلك كان ﷺ يُؤَخِّرُ صَلَاةَ الْعِشَاءِ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ؛ يَقُولُ كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْهُ ﷺ: «مَا يَنْتَظِرُهَا» يَعْنِي: الْعِشَاءَ «أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ غَيْرِكُمْ»^(٢).

وكأنه ﷺ يقول: هذه الصلاة التي تصلون إنما أنتم الذين تصلونها في الدنيا كلها حال غفلة كل النَّاسِ عن الله تعالى، وهذه ميزة عظيمة للمؤمنين، أن يذكروا

(١) أخرجه النسائي (٥٧٢)، والترمذي (٣٥٧٩) وقال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وابن خزيمة في صحيحه (١١٤٧) كلهم من حديث عمرو بن عبسة ؓ.

(٢) البخاري (٥٦٦)، ومسلم (٦٣٨).

الله تعالى عند غفلة الناس عنه، وأن يُقبلوا عليه حال إعراض الناس عنه سبحانه وتعالى ..

ولك أن تتخيل أيها المؤمن كم من رحمة الله تعالى تنزل ، ومحبة الله تعالى تحل

٣٣٠

يقول ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ... وَقَوْمٌ سَارُوا لَيْلَتَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعَدُّلُ بِهِ نَزَلُوا فَوَضَعُوا رُءُوسَهُمْ فَقَامَ أَحَدُهُمْ يَتَمَلَّقُنِي^(١) وَيَتَلَوُّ آيَاتِي ..»^(٢)

«حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعَدُّلُ بِهِ» لا يعادله شيء هذا النوم فاناموا.

«قام إليّ أحدهم»: الذي هو في محل محبة الله له سبحانه وتعالى.

«قام إليّ»: قام إليّ حال تعب، وحال مشقته، وحال كون النوم أحب إليه مما

سواه، قام إليه، لا يُحس بهذا التعب، ولا يشعر بتلك المشقة، ولا يهّمه النوم والراحة التي لا يساويها شيء، بل يحس بأن قيامه إلى ربه، وتلاوته لآياته، وتملّقه ودعائه،

(١) (المَلَّقُ) الرُّودُ واللطف الشديد وأصله التلين ، وقيل المَلَّقُ شدة لطف الودِّ ، ومَلَّقَ مَلَقًا وَمَمَلَّقَ وَمَمَلَّقَهُ وَمَمَلَّقَ لَهُ وَمَمَلَّقًا وَمَمَلَّقًا أَي تودد إليه وتلطف له. انتهى من اللسان مادة (م ل ق). قال الطيبي رحمه الله: (الملق) بالتحريك الزيادة في التودد والدعاء والتضرع. قيل: دل أول الحديث على أنه من كلامه ﷺ وآخره على أنه من كلامه تعالى. ووُجِّه بأن مقام المناجاة يشتمل على أسرار ومناجاة بين المحب والمحبوب. انتهى بتصريف من مرقة المفاتيح للملا علي القاري رحمه الله تعالى.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٦٨) ، والنسائي (١٦١٥) ، وأحمد في المسند (٥ / ١٥٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وابن خزيمة في صحيحه (٢٤٥٦ طالمكتب الإسلامي) وابن حبان في صحيحه (١٣٧/٨) ، و قال الشيخ شعيب في التحقيق : حديث صحيح.

والطلب منه هو راحته وسروره، فأنساه تعبَهُ ومشقته؛ لأنه أحس في ذلك بنعيمه، أحس في ذلك بطمأنينته، وإقباله على ربه سبحانه وتعالى، فكانت أعلى وأجل وأعظم من كل هذه السعادات التي يلقاها في غير ذلك، فكانت سعادته العظمى، وقرّة عينيه التي لا تنقضي، ونعيمه الذي لا يفنى أن يقبل على ربه، وأن يتلوا آياته، وأن يتملقه سبحانه وتعالى، إلى آخر ذلك. ثم ذكر النبي ﷺ الثاني ممن يحبهم الله تعالى فقال:

«وَرَجُلٌ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ فَلَقِيَ الْعَدُوَّ فَهَزِمُوا وَأَقْبَلَ بِصَدْرِهِ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يُفْتَحَ

لَهُ»

يعني: فروا من أمام العدو، فقابلهم رجل بصدرة فقاتلهم حتى قُتِلَ.

فذلك يضحك الله له^(١)، فهذا يحبه ربه. كأنه لما فرّ الناس عن الله تعالى، وفروا عن دين الله تعالى، ونُصِرَتِهِ إذا به هو وحده في هزيمتهم، وفرارهم، وبُعْدِهِمْ، وإدبارهم يُقْبَلُ بصدرة؛ يودّ ما عند الله تعالى من الشهادة، ومن القرب، يود ما عند الله تعالى من الأجر في الدفع عن دينه، والذّبّ عن إيمانه، والقيام بِنُصْرَةِ هذا الدين ملقياً بنفسه لا يضمن بها.

والثالث: «رَجُلٌ آتَى قَوْمًا فَسَأَلَهُمْ بِاللَّهِ وَلَمْ يَسْأَلْهُمْ بِقَرَابَةِ بَيْنِهِ وَبَيْنَهُمْ فَمَنْعُوهُ،

فَتَحَلَّفَ رَجُلٌ بِأَعْقَابِهِمْ فَأَعْطَاهُ سِرًّا لَا يَعْلَمُ بِعَطِيَّتِهِ إِلَّا اللَّهُ وَالَّذِي أَعْطَاهُ». يعني:

أعطاه بينه وبينه، أعطاه مما أعطاه الله تعالى، أعطاه مما رزقه الله تعالى، أنفق في السرِّ

(١) قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم: الذي إذا تكشف فنة قاتل وراءها بنفسه لله عزَّ

وجلّ..» أخرجه الحاكم وصححه (٦٨) من حديث أبي الدرداء ؓ مرفوعاً.

من هذا الباب الذي يحبه الله تعالى^(١). فكان ذلك الشخص ممن يحبهم الله تبارك وتعالى.

فأريت هذا الحديث يُصوّر هذه المحبة من الله تعالى لهؤلاء الذين تركوا رَغْدَ عيشهم، ودَعَتَهُمْ، وسكونهم، وراحتهم، وزوجاتهم، وغِطائهم ونومهم، وأنفقوا مالهم، وضحوا بأنفسهم فقاتلوا وقُتِلُوا في سبيل الله، وهكذا..

وحسبك بقوم يحبهم الله، حسبك بهم في علو درجاتهم وحُسن منزلتهم وقل ما شئت فلن تبلغ العبارة وصف حالهم.

فلعلك قد أخذت هذا المعنى من تعبير أوقات الغفلة بذكر الله تعالى وطاعته ليكون رصيّدك في "شعبان": أن تكون أنت المُقبِلَ حال فرار النَّاسِ، والمُتصدِّقَ حال بُخلِهِم وإحجامهم وحرصهم، أن تكون القائمَ حال نومهم وغفلتِهِم، والذَّاكِرَ لله تعالى والداعي المُتملِّقَ له حال بُعديهِم وحال نومهم.

ذلك كله يكون سببَ محبة الله تعالى لعبده، فإن الله تعالى يحب لهم ذلك.

ومثل آخر: كان المؤمنون في عهدهم الأول يقومون ما بين "المغرب" و"العشاء" صلاةً لله تعالى^(٢)؛ لقولهم: إن هذه ساعة يغفل النَّاسُ فيها عن الله تعالى، فيقومون

(١) قال رسول الله ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ... وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ سِئَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينَهُ..» أخرجه البخاري (١٤٢٣)، وعن أبي أمامة ؓ عن رسول الله ﷺ قال: «صَدَقَةُ السُّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ» أخرجه الطبراني في الكبير وحسن إسناده المنذري في الترغيب ح: (١٣١٧). ط. العلمية.

فيها لربهم سبحانه وتعالى، ساعة غفلة يغفل الناس عنها لا ينبغي للمؤمنين المتقين أن يغفلوا كما غفل غيرهم، وأن يناموا كما نام غيرهم، أو أن يلهوا كما لهى غيرهم، أو يتعدوا كما ابتعد غيرهم، أو يفروا كما فرّ غيرهم.

وعادة الناس اليوم هي الفرارُ من الطاعة والعمل الصالح والمَلَل منها، والضيق بها، يودّون شيئاً سريعاً، شيئاً خفيفاً لا يكلفهم أنفسهم أو ما دونها، شيئاً لا يكون له أثره الجميل في قلوب المؤمنين، ولا في أعمالهم وأقوالهم، كأنّ أثقل شيءٍ عليهم هو إقبالهم على ربّهم، ومحبتهم لربهم، وبذلهم لربّهم، فضلاً عن تضحيتهم لربهم! وإن كان شيءٌ لغير الله تعالى وجدّتهم يسارعون ويعطون ويبدلون، ولا يُهمُّهم وقت، ولا مال، ولا جُهد، وإن كان لله تعالى وجدت العِلَل والأعذار، والبُعد عن الله تعالى!

وكان تعمير النبي ﷺ وأصحابه لهذه الأوقات التي هي في محل الغفلة لهذا

السبب الأول وهو: أن يحصلوا محبة الله تعالى، وأن يُجازيهم ويكافئهم أحسن الجزاء، وأن يُعظّم ثوابهم.

(١) عن قتادة عن أنس ؓ في هذه الآية «كأنوا قليلاً من الليل ما يبيحون» قال: ((كانوا يصلون بين العشاء والمغرب)). أخرجه الحاكم (٣٧٣٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، قال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم. اهـ. وعن حذيفة ؓ ((أنه صلّى مع النبي ﷺ المغرب ثم صلّى حتى صلّى العشاء)) أخرجه الحاكم (١١٧٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والترمذي بنحوه وقال حسن غريب (٣٧٨١).

الفائدة الثانية: دفع البلاء النازل على النفس والأمة:

شيء آخر ينبغي النظر فيه وهو: مسئولية المؤمنين اليوم:

فإن تعمير أوقات الغفلة مما يدفع الله تعالى به السوء عن النفس وعن الأمة، والذي يجب أن يكون في اهتمام المؤمنين اليوم، كيف يدفعون عن أنفسهم؟ وكيف يدفعون عن إخوانهم في أقطار الإسلام ما نزل بهم، وما أحاط بهم، وما حلَّ عليهم؟ وقد فتح الله تعالى لهم هذا الشهر الكريم ليستشعروا تلك المسئولية؛ فإنَّ الله -تبارك وتعالى- يدفع بالمؤمنين القائمين، الراكعين، الساجدين، الذاكرين، الصائمين، المتصدقين، المتكافلين، المتعاونين؛ يدفع الله -تبارك وتعالى- بهم عن أنفسهم، وعن غيرهم البلاء النَّازل، إذا ما نزل البلاء فوجد قومًا يُصلون، ووجد قومًا يصومون، ووجد قومًا يتهجدون، ووجد قومًا يذكرون رُفِعَ عنهم البلاء، ودُفِعَ بهم عن غيرهم، فهم حائط الصد الأول الآن، تُرى الهزيمة تأتي من قبلهم؟!

لذلك يقول الله سبحانه: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١]، يعني: لولا أن يدفع الله -تبارك وتعالى- بالمؤمنين عن غيرهم لنزل بهم البلاء، وقد علمتم أنَّ الله -تبارك وتعالى- يحفظ بالرجل الصالح أهله وولده والنَّاس من حوله.

نزلت الملائكة بقرية ليخسفوا بها، فوجدوا فيها رجلاً قائماً يصلي، فرفعوا عنهم البلاء. وأصل هذا القصص في كلام الله جل وعلا، يقول سبحانه في حفظ

مَالِ الْعُلَمَائِينَ: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ [الكهف: ٨٢]، ويقول النبي ﷺ: «أَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي. فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ»^(١)

يعني: أصحاب النبي ﷺ هم الأمان للأمة، ومن بعدهم كذلك كلما كان فيهم صالح من الصالحين إذا بالله تعالى يجعله أمانة لهم، وحفظاً لهم بما يُقدّم الله تعالى من العمل الصالح ... بما يرفع إلى الله تبارك وتعالى من الدعاء ... بما يُرفع له من الذكر والقيام ... بما يرفع له من الصيام ... وبما يُرفع له من النصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعلم النافع والعمل الصالح، والسعي في مصالح المسلمين، والقيام عليها.. والدعوة إلى الله تعالى والجهاد في سبيله.

كل ذلك يرتفع إلى الله تعالى، فإذا به يدفع البلاء عن المؤمنين. ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿٢٧﴾ [النساء: ١٤٧].

فها قد فتح الله -تبارك وتعالى- شهر "شعبان" ليتحمل المؤمنون مسئولياتهم، وليعلموا حجم هذه المسئولية وضخامتها وهم يرون أن ما نزل بغيرهم من البلاء قد تحققت أسبابه فينا، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ولولا أنه ثمة إيمانٌ موجود، أو لوجود بعض أهل الإيمان يرحم الله تعالى بهم البلاد والعباد لَنَزَلَ بهم ما ساءهم، وَلَنَزَلَ بهم ما نزل بغيرهم.

لا بُدَّ إذن أن يسارع المؤمنون بالتحقق بتلك الأسباب، وأن يتتهزوا هذه الأيام التي لا مرد لها مرة أخرى، ولا رجوع؛ قال تعالى: ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣١) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿المناقون: ١٠﴾، يسأل الرجوع وقد حيلَ بينه وبين ذلك.

فقد فتح الله لك باباً من أبواب الطاعة فاسلكه لتتقرب إليه به ، واعلم أنه تكفل لك سبحانه وتعالى بالعاقبة. طالما فتح لك هذه القربات ستأتي هذه العواقب كلها حميدة، لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

ذلك المخرج الذي ذكره الله تعالى في الآية لا بد أن يحدث للمتقين المؤمنين، وهذا مما يُخفف على المرء، ويُعلِّمه التوكل على الله تعالى، وأن يُسارع إلى الطاعة والمغفرة، وأن يتسابق فيها، ولا يُهَمِّه ما يمكن أن يترتب على ذلك ؛ لأنه يعلم أنه لن يترتب إلا الخير ... لن يترتب إلا العاقبة الحسنة له ... لن يترتب على ذلك من الله جل وعلا- الذي هياه لذلك - إلا كل توفيق وسداد، لا يخاف؛ لأن الأمور بيد الله، وأنه ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].^(١)

الفائدة الثالثة: تحصيل الأجور المضاعفة:

«ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ»^(٢)

ونشير إلى معنى آخر من المعاني المهمة وهو:

(١) وللاستزادة من هذا المعنى المهم فليُنظَر شرح اسم الله تعالى «الوكيل» للمؤلف.

(٢) تقدم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

أن غفلة النَّاس تجعل هذه الطاعات شاقة على النفس؛ لأنه إذا ما كثرت الطاعات لله تعالى فإنَّ النَّاس كُلَّهُم يَأْلَفُونَ الطاعة في "رمضان". ففي رمضان كل الناس صائمون، وكلهم متعاونون على هذا الأمر من أوامر الله تعالى، وكلهم لوجود الطائعين الصائمين القائمين يتأسون بهم، ويسيرون ورائهم، ولا يُحْسِنُونَ بمشقة الصيام، ولا بمشقة القيام. أما إذا جاءت أوقات الغفلة، وتفرَّد المرء بالطاعة كانت شاقة على نفسه وصعبة عليه؛ لأنه لا يجد مَنْ يتأسى به.

لذلك قال النبي ﷺ في هؤلاء المتعبدين في أيام المحنة، أو في أيام الفتنة، أو في أيام عدم وجود الطاعة والعبادة من النَّاس لله تعالى، قال:

«لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِمَّا أَوْ مِنْهُمْ؟! قَالَ: بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»^(١).

فأجر هؤلاء الذين يتفردون بطاعة الله تعالى في هذه الأيام التي تكثر فيها الغفلة، وتزداد فيها الفتنة أجرهم يزداد على حسب مشقة هذه الأعمال على نفوسهم، وعلى حسب ثقل هذه الطاعات على قلوبهم وأبدانهم، وعلى حسب ما يتحملون من تلك المشقة، ومن هذه الصعوبة، ويبدلون حتى يحققوا أقصى عبادة يمكن أن يحققوها. «أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ». يعني: الذي يعمل العمل الصغير في مثل هذه الأيام -من أيام الغفلة- التي لا يساعده فيها أحد يُحْصَلُ أجر خمسين من أعمال الصحابة..

(١) رواه أبو داود (٤٣٤١) عن أبي ثعلبة الخشني ؓ مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وصحَّح لغيره المتن المذكور الشيخ الألباني في صحيح الترغيب (٣١٧٢).

ليس ذلك معناه أن أحداً سيعمل كأعمال الصحابة، لا، وإنما العمل الواحد يوازن ذلك، أما أن يُحْصَلَ أحدٌ مجموع عمل الصحابي فلا يحصل أحدٌ بعدهم تلك الدرجة لصحبتهم للنبي ﷺ.

لذلك كان يقول النبي ﷺ: «أنتم تجدون على الخير أعوانا، وهم لا يجدون على الخير أعوانا» .

ولذلك أيضاً قال النبي ﷺ: «فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَمَنْ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ»^(١).

فإذا كثر الفساد، وَعَمَّ البلاء، هؤلاء هم الغرباء الذين يُحْسِنُونَ ويصلحون طوبى لهم.

فتفطن المؤمنون إلى أنه كلما تعبدوا لربهم في أوقات الغفلة، وازدادت عبادتهم، وازداد تمسكهم بسنة النبي ﷺ، ووجدوا في ذلك مشقة على نفوسهم،

(١) رواه الأجرى في ((الغرباء)) من رواية عبد الله بن مسعود ﷺ، وأخرجه الإمام أحمد بنحوه في مسنده (١/١٨٤) من رواية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال الشيخ شعيب في التحقيق: إسناده جيد، وأبو يعلى (٢/٩٩)، ورواه الإمام مسلم في صحيحه (١٤٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَخْتَصراً مرفوعاً إلى النبي ﷺ ولفظه: «بَدَأَ الْإِسْلَامَ غَرِيباً، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيباً، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ». قال الإمام النووي في شرح مسلم: أَمَا مَعْنَى (طُوبَى) فَاحْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا فِي قُرْبَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ مَعْنَاهُ فَرَحٌ وَقُرَّةٌ عَيْنٌ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: نِعْمَ مَا هُمْ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: غِبْطَةٌ لَهُمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: حُسْنَى لَهُمْ. وَعَنْ قَتَادَةَ أَيْضاً مَعْنَاهُ أَصَابُوا خَيْرًا. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: خَيْرٌ لَهُمْ وَكَرَامَةٌ. وَقَالَ ابْنُ عَجَلَانَ: دَوَامُ الْخَيْرِ. وَقِيلَ: الْجَنَّةُ. وَقِيلَ: شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُحْتَمَلَةٌ فِي الْحَدِيثِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى.

وصعوبة على أبدانهم، وكذلك وجدوا هذا الكلال الذي يمكن أن يتحملوه في سبيل قُرْبِهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، وعبادتهم لله تعالى، فَإِنَّ أَجْرَهُمْ تَزْدَادُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ دَرَجَتُهُمْ تَرْتَفِعُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّ اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - بِكْرَمِهِ وَمَنْنِهِ يُجْزِلُ لَهُمُ الْمَثُوبَةَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَيَزِيدُ لَهُمْ فِي الْأَجْرِ الَّذِي يَفْرَحُونَ بِهِ عِنْدَمَا يَلْقَوْنَ اللَّهَ تَعَالَى. هَذَا الْمَعْنَى يُحَقِّقُ عَلَى الْمَرْءِ الطَّاعَاتِ الْمُسْتَتَقِلَةَ هَذِهِ الْأَيَّامَ، وَهَذِهِ الْقُرْبَاتِ الشَّاقَّةَ عَلَى النَّفْسِ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ. وَإِنْ كَانَتِ الطَّاعَةُ لَا مَشَقَّةَ فِيهَا بَلْ هِيَ نَعِيمُ الرُّوحِ وَلَذَّةُ النَّفْسِ وَبَهْجَةُ الْقَلْبِ وَقِرَّةُ الْعَيْنِ.

لذلك قال النبي ﷺ: «الْعِبَادَةُ فِي الْمُهْرَجِ كَهَجْرَةِ إِلِيٍّ»^(١).

فإذا كان أصحاب النبي ﷺ قد فازوا بهجرتهم إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه؛ إيماناً بالله تعالى وتسليماً له، وتركاً للأهل والمال والوطن والديار، فإن الله تعالى قد فتح للمؤمنين كذلك في أيام الفتنة هذا الباب الذي يشابهون به أصحاب النبي ﷺ في الهجرة إليه.

فالعبادة في الفتنة كالهجرة للنبي ﷺ، فإن الناس في هذه العهود قد عادت إلى أهوائها، وعادت إلى اتباع شهواتها ونزواتها كعادة أهل الجاهلية، فمن خرج منهم إلى عبادة الله تعالى، والاستقامة على أمره، والثبات على دعوته سبحانه وتعالى كان حاله كحال من هاجر إلى النبي ﷺ وترك الجاهلية وأهلها.

وهذا يحمل المؤمنين على أن يستمسكوا بالله تعالى وأن يعتصموا بالله تعالى، وبِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنْ يَزِيدُوا مِنْ بَدْنِهِمْ. فكلما زاد ذلك في مثل هذه الأيام كان الأجرُ

(١) أخرجه الإمام مسلم (٢٩٤٨) من حديث معقل بن يسار ؓ.

الحسن هو الذي ينتظرهم عند الله تعالى وهو أجر الهجرة إلى النبي ﷺ . وكفى بذلك شرفاً وفخرًا أن يُحصّل المرء ذلك .

الوظيفة الثالثة: مجاهدة النفس على الطاعات:



- ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾
- حديث المجاهدة : «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه..»
- «قم إلي أمش إليك» ، لو مشى إليك لتغير حالك.
- «أعني على نفسك بكثرة السجود»

مجاهدة النفس والاستضاءة بأنوارها علاجٌ للمرء الذي قد كثرت غفلته، واستراح إلى النوم والدعة والسكون، وإعطاء النفس حظها من الراحة. فإذا تعارضت الصلاة مع النوم فَيَقْدَمُ النوم. أو أن يتعارض الصيام مع شهواته وأكله وشربه، وميل نفسه إلى حطام الدنيا، فَيُقَدِّمُ شهواته. ونزواته وحظ نفسه على ذلك. أو يتعارض أنسه بالله وذكره له مع أنسه بالخلق والغفلة فيقدم الغفلة.

وشفاء ذلك المسكين إذا ما جاءته أيام البركة أن يستعن بالله ﷻ وليبدأ تائباً

راجعاً بقلبه إلى الله تعالى، سالكاً طريق المجاهدة، واضعاً نصب عينيه قول الحق ﷻ:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. ليحصل ذلك الفوز وتلك الهداية وهذه المعية.

وبذلك تنحل قسوة قلبه وضعفُ بدنه ودناءةُ همته، فيرى طريقه منيراً إلى الله تعالى موقفاً بعد ذلك في رمضان، وهذا هو حديث المجاهدة؛ يقول الله ﷻ في الحديث القدسي:

«وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ بِمَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْتَطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطَيْتَهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ»^(١)

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ؓ.

وهذا الحديث يبيّن الواقع الذي نحن فيها؛ لأنّ المرء يسمع هذا الكلام، ولم يتحقق بشيء منه، مَنْ الذي كان له ربه سبحانه وتعالى يده وسمعه وبصره - على طريقة اعتقاد السلف - وصار إلى الحالة التي إذا دعاه استجاب له، وإذا استعاده أعاده سبحانه وتعالى؟

وهذا المقام لا يتأتى إلا بعد أن يُتقن العبدُ فرائضه، ثم بعد ذلك يجاهد نفسه على التزود من تلك النوافل؛ فلا يُبقي في وقته، ولا جُهدَه ولا ماله، ولا صدقته مجالاً إلا وقد جاهد فيه نفسه، وتقدّم فيه إلى الله تعالى بكل ما يستطيع كما قال المولى عليه السلام:

«إِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا»^(١).

وهذا الحديث يشير إلى تقدم السير إليه سبحانه؛ "الشبر والذراع والباع"، لا يتكلم الحديث عن الواقع المؤلم الذي نحن فيه وهو: التأخر، والتردد، والتشكك، والنوم، والدعة، والكسل والسكون إلى ما هو فيه المرء من الحالة السيئة، وإنما ذلك العبد المحبوب المتقرب إلى الله تعالى في ترقق مستمر إلى الله تعالى؛ ينتظر هذا الجزاء «وإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطَيْتَهُ وَلَكِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ»^(٢)، «كُنْتُ سَمِعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرُهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٧٥٣٦)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لذلك قال: «إِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا»^(١).

فهذا إذاً شهر المجاهدة التي نسمع عنها، والتي نذكرها، ونكررها، والحال كما هو، لا يستقيم على العبادة.

وهذا يُبَيِّنُ أنك ما مشيت الشُّبْرَ ذلك إلى الله، بل إنك لم تقم إليه أصلاً كما قال في الحديث الآخر: «يَا ابْنَ آدَمَ: قُمْ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيْكَ»^(٢).

وكأنها الحال التي نحن فيها وهي: حال «قُمْ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيْكَ» إذا بك لم تقم فعلاً! مَنْ الذي قام فمشى إليه؟ ولو مشى سبحانه إليه لتغيَّرَ حاله: «قُمْ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيْكَ»^(٣)..

وانظُرْ إذا هو قد أقبل عليك سبحانه وتعالى إلى ما تكون فيه من الحِفظ والاستقامة والتوفيق والسداد، وما تكون فيه من حُبِّ لِلآخِرَةِ، وزهدٍ في الدنيا، وإقبال على الله تعالى. لأنه قد أقبل عليك، فإذا أقبل عليك ماذا تريد بعد ذلك؟!

ومن هنا علمت أنه لم يُقْبَلْ عليك الإقبال الذي تثبت به، والإقبال الذي ترقى به، والإقبال الذي يحبه سبحانه وتعالى، فتكون محبته أحبَّ إليك من كل شيء،

(١) أخرجه البخاري (٧٥٣٦)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٧٨/٣)، قال المنذري في الترغيب (ح: ٤٧٧١): "رواه أحمد بإسناد صحيح"

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٧٨/٣)، قال المنذري في الترغيب (ح: ٤٧٧١): "رواه أحمد بإسناد صحيح."

ويكون تقربك إليه أولى عندك من كل شيء. بل أنت لم تُقدِّم هذا التقدم الذي لو قدمته سبحانه وتعالى وجدت عاقبة ذلك في حالك المتدهور، وفي أحوالك السيئة التي تُعاني وتشتكي منها، والتي لم تحاول أن تجاهد نفسك على تغييرها.

«قُمْ إِلَىٰ أَمْسٍ إِلَيْكَ» لذلك أمرك أن تقوم، فكأنه يُخبر في هذا الحديث عن حال المرء مقارنة بحال المقربين؛ أن المرء لم يقم بعد، بل ما زال مُحَلِّدًا إلى الأرض ... ما زال مربوطاً بشهواته ونزواته ... مُقَيِّدًا بمعاصيه وذنوبه ... كلما أراد أن يقوم قَيِّدته معاصيه وشهواته، وجذبتة إلى الأرض.

ويُبين رسول الله ﷺ طريق المجاهدة في حديث آخر عندما قال ربيعة بن كعب رضي الله عنه للنبي ﷺ لما قال له: «سَلْ . فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: فَأَعِنِّي عَلَىٰ نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»^(١).

فبكثرة السجود يصل المرء إلى هذه الأشواق العالية من مصاحبة النبي ﷺ في الجنة، ولا تتأتى هذه الأشواق العالية من هذه الأمانى التي نحن فيها، ولا من هذا التسويف الذي يقوله المرء: «غَدًا إن شاء الله! عندما يأتي رمضان ... عندما يأتي شوال ... عندما يأتي العشر ... عندما انتهى من هذا الشُّغل ... عندما أنهى فترة التجنيد ... عندما أنتهي من الدراسة ... عندما انتهى من مشكلة الزواج ... عندما أرجع من السفر...»

وكان المرء يملك قلبه! وكأنه يملك عمره! من الذي يملك قلبه أو عمره!؟

(١) أخرجه مسلم (٤٨٩) من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه.

واعلم أن مجاهدة النفس حال مشقة العبادة درجتها عالية، وأنها - أي العبادة - كلما شَقَّتْ عليه زاد ثوابها، وكلما شقت عليه العبادة احتاج إلى هذه المجاهدة. وهذه المجاهدة هي التي نفتقدها اليوم.

لذلك يبدو أننا في هذه الأحوال لم نتحرك شبرًا ولا ذراعًا ولا شيئًا، بل لم نقم من مكاننا الذي نحن فيه إلى الله تعالى، ومَنْ حاول أن يقوم رجوع مرة أخرى فجلس واستكان واطمأن إلى ما هو فيه من الحالة السيئة التي يقاومه فيها نفسه وشيطانه وهواه، ويصعب عليه بعد ذلك أن يقوم لله تعالى.

إذا فتح الله -جلّ وعلا- لك بابًا من أبواب الطاعة، فرددته ولم تعبأ به فأنّي

يفتح لك ذلك الباب مرة أخرى؟!

وهذا هو سبب الحرمان الذي نحن فيه، أن المرء لا يجاهد نفسه، وتراه يجاهد نفسه على الدنيا، ويحملها ويسافر بها، ويَتعبُّها، ويشقى بها، ويسهر بها، ويتعارك لها، ويتطاحن فيها؛ ليحصل زائلًا، وربها لم يُحَصِّلْها، وإذا جاءت الآخرة أخذها بهذا الضعف وهذه الاستكانة، وهذا النوم وهذا الكسل، وكأنه لن يرحل إلى الله! وكأنه لن يقف لرب العالمين! وكأنه لن يُسأل ولن يُحاسب! وكأنه لن يتعرض لأحوال كلها محن وكروب لا يستطيعها أحد، وفوق ما يتحملة طاقة الناس ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] (١).

(١) ونكتفي بهذا القدر المختصر من الكلام على معاني المجاهدة، ولزيت من التفصيل والتوضيح لمعاني المجاهدة في الطاعات ولشرح الآيات والأحاديث فراجع رسالة "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا" للمؤلف.

الوظيفة الرابعة: تجهيز أفضل الأعمال لرفعها لرب العالمين



- رفع الأعمال حال الصوم أدعى للقبول.
- استعد في شعبان تجد حلاوة الطاعة في رمضان.
- لا يرتفع إلى الله إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم:
 - التحذير عن الخروج عن حد الإخلاص
 - بركة الإخلاص.
 - شهر "شعبان" هو شهر الإخلاص.

رفع الأعمال حال الصوم أدعى للقبول:

وهنا معنى جديد في قوله: ((تُرفع فيه الأعمال إلى رب العالمين))؛ ورفع الأعمال إلى رب العالمين: على ثلاثة أنواع: يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، ويُرفع إليه العمل يوم "الاثنين" و"الخميس"، ويُرفع إليه العمل في شهر "شعبان" خاصةً.

فذكر النبي ﷺ أن الأعمال تُرفع إلى الله تعالى رفعًا عامًا كل يوم، قال ﷺ: «يَتَعَاقِبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ - كَيْفَ تَرَكَتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكَنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»^(١).

ثم تُرفع كل أسبوع يوم "الاثنين" و"الخميس" كذلك الأعمال إلى الله، ثم الرفع في "شعبان" بالذات وهو رفع مهم، وهو الرفع الثالث الذي تُرفع فيه الأعمال، وتُعرض على الله تعالى، وانظر إلى قول النبي ﷺ في هذه الحالة، وهو قوله ﷺ: ((تُرفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، فَأَحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ))

فالأعمال ترفع كلها إلى الله في هذا الشهر، أتريد أن تُرفع لك أعمال أم لا؟ وهل تريد أن تُرفع لك أحسن الأعمال أم لا؟

هذان الأمران المهمان: أن الأعمال كلها تُرفع، فيجب أن ترفع وهو صائم، ويجب أن تُرفع الأعمال على أحسن أحوالها.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٢٧)، ومسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة ؓ.

المعنى إذا هنا:

ماذا تريد أيها المسكين أن يُرفع لك إلى الله؟ أن ترفع الملائكة صحائفَ

النَّاس إلى الله، فلا توجد في صحيفتك أعمالٌ، أو أن ترفع الملائكة الصحائف إلى الله

تعالى وفيها أعمالك، ولكنها أعمال خسيصة وقليلة، لا تساوي شيئاً...!؟

«تُرفع فيه الأعمال إلى رب العالمين»

تُرفع فيها الأعمال، فأحب أن يُرفع لي بعض الأعمال فقط؟ لا بل يجب أن

يُرفع له كل الأعمال، ليس كذلك فقط، ولكنه يجب أن ترفع فيه الأعمال إلى الله وهي

في نهاية القبول. لا يمكن أبداً أن يكون قول النبي ﷺ: أن ترفع بعض الأعمال، وأن

يترك بقية الأعمال إلى الغفلة؛ هذا يتعارض مع قوله: «يغفل عنه الناس».

لذلك: يريد أن تُرفع فيه أحسن الأعمال وأكثر الأعمال - وأعماله كلها حسنة

وأوقاته كلها عامرة ﷺ؛ لأنه لا يمكن أن يرضى بأن تُرفع فيه بعض الأعمال، ولا أن

تُرفع فيه الأعمال التي لا تساوي أن تُرفع إلى الله، وإنما يريد أن يقول: تُرفع فيه ما

يتمكن المرء فيه من عمل لا يقصر فيه، فيُرفع له فيه الأعمال كافة التي يمكن أن

يعملها، في نفس الوقت يُرفع فيه أعمال تُبيّض وجهه عند الله.

«تُرفع فيه الأعمال إلى رب العالمين فأحب أن يُرفع عملي وأنا صائم»^(١).

(١) سبق تخريجه.

يعني: لَمَّا رُفِعَت الأعمال، وعُرِضَتْ على الله تعالى، فماذا تختار لنفسك أن يُعَرَّضَ عليه؟ ما يُبَيِّضُ وجهك أم ما يُسَوِّدُ وجهك؟! ما يُقْبَلُ أم ما يرد؟! ما يكون سبباً لجزيل الثواب أم لقله الثواب؟..

لا شك أن النبي ﷺ يختار الدرجة العالية الرفيعة التي يؤدي بها، والتي تكون سبباً يُعَلِّمُ بها ويُنبئ بها المؤمنين على أن يكونوا على هذا الحال الذي يحبه النبي ﷺ.

وَرَفَعُ الأعمال إلى الله تعالى مع كونه صائماً أَدْعَى إلى القبول عند الله تعالى، وأحبَّ إلى الله جل وعلا، وأن يتقبل صالح عمله كله سبحانه وتعالى، وأن يُشَبِّهَ عليه أعظم الإثابة، وأن يكافئه عليه أعظم مكافئة، وهو ما يسعى إليه المؤمنون تأسياً واقتداءً بالنبي ﷺ.

استعد في شعبان تجد حلاوة الطاعة في رمضان :

ولهذا المعنى كان "شعبان" مقدمة لـ"رمضان" ..

إذا كان الحال كذلك في "شعبان" وهو شهر يصوم فيه ﷺ استحباباً فما بالك عندما يجيء الصوم الواجب الذي به تُغْفَرُ الذنوب، ويُرْحَمُ النَّاسُ، وتُتَعَقُّ رِقَابُهُمْ من النار؟! من النار؟!

فإذا جاء "رمضان" كما يقول ﷺ: «إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فَتَحَّتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ»^(١).

تُرى ماذا تكون حاله ﷺ في رمضان؟

وكأنه إذا رُفِعَ له في "شعبان" أعظمُ الأعمال وهو صائم، وأحسنها وهو صائم، وأقربها إلى القبول وهو صائم من كل ما يمكن من عمل؛ لأنه يقول: «تُرْفَعُ فيه الأعمال إلى رب العالمين».

تُراه يُرْفَعُ فقط الصوم، تراه فقط يرفع القرآن، تراه فقط يرفع الذكر، تراه فقط يرفع القيام، تراه فقط يرفع العلم النافع، أو تراه فقط ترفع الدعوة، والأمر بالمعروف، أو الصدقة أو الزكاة، أو السعي على مصالح المسلمين، أو القيام بحوائجهم، أو الإصلاح بينهم؟ أو الأخلاق العالية الحسن.

كل ذلك يرفع له فإذا جاء "رمضان" إذن: كان على هذا الحال الحسن، قد رُفِعَتِ الأعمال وقُبِلَت، وزُكِيَتِ النفوس والقلوب، وصار المرء أهلاً لهذه العبادة، وأهلاً لهذه الرحمة، وأهلاً للعتق من النار. دخل المرء على "رمضان" وقد وجد حلاوة الإيمان، ووجد حلاوة الصيام والقيام، ووجد حلاوة الذكر والطاعة، وأخرج زكاته وصدقته، وأخذ حظه من أنوار المجاهدة التي بها تُرْفَعُ الأعمال إلى رب العالمين، كان جديراً أن يدخل رمضان وهو في أحسن حال.

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٩)، ومسلم (١٠٧٩) وهذا لفظه وعند البخاري "سُلِّسَتْ" بدلاً من "صُفِّدَتْ".

لا يرتفع إلى الله إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم

وهناك معنى آخر في قوله ﷺ: ((ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين)).

أي الأعمال هذه التي تُرفع؟ والجواب: الأعمال التي أخلص العبد فيها لربه وأتبع فيها سُنَّة نبيه ﷺ.

إنَّ عمل المرء إذا رُفِع إلى الله على هذه الحالة السيئة أُلْقِيَ به في وجهه. وإذا كان هذا العمل ضعيفاً فكيف ينتظر المرء أن يُرفع إلى الله تعالى؟

وإنما يرفع باجتماع الهمة وقوة القلب. وعلى قدر قوة القلب والعزيمة وارتفاع الهمة وعلوها ترتفع الأعمال إلى الله تعالى. وعلى قدر ما في القلوب من الإخلاص والمحبة وتوابعها ترفع الأعمال إلى رب العالمين ﷺ.

فينبغي التنبه إلى أنَّ أَيَّام الغفلة هي أيام الإخلاص وليس للنفس فيها نصيب.

إنَّ أَيَّام الغفلة التي تُرفع فيها الأعمال إلى الله، لا تُرفع إلا بالإخلاص؛ لأنه أشق شيء أن تَعْمَلَ والناس لا يعملون ثم لا يداخلك العُجْبُ وإظهارُ العمل.

والله تعالى يقول: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) [البينة: ٥٠].

يعني: ألا يريد بعمله ذلك إلا الله؛ لأنه تُرفع الأعمال إلى الله تعالى، فإذا بالله تعالى يلقي بهذه الأعمال ويُرَدِّهَا، وتساله الملائكة فيخبرهم أنَّ هذه الأعمال لم يريدوا بها وجه الله تعالى.

تُراكَ أيها المسلم المؤمن وأنت تعمل العمل على غير الإخلاص لله تعالى، تُراه يرتفع إلى الله؟!!

لا يرتفع إلى الله تعالى إلا ما كان خالصاً لله تعالى يُتَغَى به وجه سبحانه وتعالى، وكذلك في الآخرة؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الشَّرْكَ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ تُجَازَى الْعِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنتُمْ تُرَاءُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟»^(١) لا يجدون عندهم شيئاً!

• التحذير من الخروج عن حد الإخلاص

إنَّ معاملات المؤمنين اليوم - إلا من رحم ربي - قد خرجت عن حدِّ الإخلاص لله تعالى؛ حتى وَهْمُ يعبدون الله - تبارك وتعالى - يحبون أن يُمدحوا على هذه العبادة، والذي يُوفِّقه الله تعالى مثلاً لَأَنْ يقوم ليلة، يودُّ أن يطلع عليه النَّاسُ ليرَوْه وهو يصلي. وهذا الصائم يود أن يَعْلَمَ النَّاسُ بصيامه، لا يريد أن يخفي صيامه، ولا أن يخفي عبادته، وإنما يريد أن يطلع النَّاسُ عليها ليمدحوه عليها، أو يريد من النَّاسِ ترك المذمة، أو يريد من النَّاسِ العِوَضَ على ذلك، حتى في معاملاته هذا المسكين مع النَّاسِ لو أحسن إلى النَّاسِ إذا به لو أساءوا إليه يقول: «قد فعلت لهم كذا وكذا، وعملت لهم كذا وكذا، ثم يعاملونني بكذا وكذا، وهذا آخرته وهذا رد الجميل، وهذا...»

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤٢٩/٥) عن محمود بن لبيد رضي الله عنه يرفعه، قال المنذري في الترغيب (ص ٥٠ ط. العلمية): رواه أحمد بإسناد جيد. اهـ، ومحمود بن لبيد راوي الحديث: هو مُحَمَّدُ بْنُ لَبِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ رَافِعِ أَبِي نُعَيْمِ الْأَنْصَارِيِّ، الْأَوْبِيِّ، الْأَشْهَلِيِّ، الْمَدَنِيِّ. وُلِدَ بِالْمَدِينَةِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. اختلف العلماء في صحبته لكن جزم البخاري بأن له صحبة، ورجح ابن عبد البر وابن حجر بأن له صحبة رضي الله عنه. توفي سنة ٩٦ هـ وقيل ٩٧ هـ بالمدينة (انظر تهذيب التهذيب) بتصرف.

فيتضح بذلك أنه لم يكن مخلصاً في عمله ولا في صحابته ولا في صداقته، ولم يكن مخلصاً كذلك في مقاطعته . إنما غضبه لنفسه، وصداقته لنفسه، وانتظاره لأجر الناس له، ورد المكافئة والجميل، وكفّ الشر والأذى، إلى آخر هذه النوايا السيئة التي لا يفهمها المرء من نفسه، فإذا ما ظهرت الحقائق، وجاء الامتحان، وجدت أن كل ذلك لم يكن لله تعالى، وإنما كان لأنفسهم، وكان لتحصيل مصالحهم النفسية والمالية التي هي بعيدة كل البعد عن الله تعالى ... بعيدة عن إرادة وجهه سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩]. لا يريدون جزاءً ولا شكوراً من أحد، وإنما قدموا ما قدموا ينتظرون ما عند الله، فإذا لم يعطهم المولى سبحانه وتعالى لن يعطيهم أحد، وإذا ما عملوا هذه الأعمال على انتظار هذا الرياء، أو على انتظار السمعة، أو على انتظار الشهرة بين الناس، ومدح الناس لهم، أو مكافئتهم، أو القيام بحقوقهم، أو الحزن عند تقصير الناس على القيام بواجباتهم و السؤال عنهم، يقول أحدهم: «سألتُ عنه فلم يسأل عني، وأعطيتُه واحتجتُ فلم يعطني، وفعلتُ.. وفعلتُ..». وكل ذلك ليس من الإخلاص لله تعالى.

قال رسول الله ﷺ: « إِنْ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُجِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ

فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكَتُ مِنْ سَبِيلٍ مُّحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ» (١).

ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث أوّل من تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة، هذا الذي قد تصدّق لله تعالى، وهذا الذي قُتِلَ في سبيل الله، وهذا الذي تعلّم العلم، كل هؤلاء أوّل من تُسَعَّر بهم النار. هذا الذي استشهد وقاتل في سبيل الله، يُعرّفه نِعْمَهُ فيعرفها، فيقول: ماذا فعلتَ فيها؟ يقول: قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ، يُقال له: «كذبت»، مع أنّه قاتل وأتعب نفسه كلّ هذا التعب، ولكنه يُقال له في النهاية: «كذبت»، لم تفعل ذلك لله تعالى، نعم! قد قُتِلتَ، نعم! قد حدث لك وحدث، ولكنك في نهاية الأمر كنت كذاباً، كذبتَ لم تُردِّدْ به وجه الله إنما ليقال شجاع.. اذهبوا به إلى النار. والرجل قد تصدّق، وأعطى وأنفق، ولم يترك شيئاً إلا قد أنفق فيه، وأعطى لهذا وفعل لذلك، وقام بخدمة هذا، وسوّى لهذا، يُعرّفه نِعْمَهُ فيعرفها، فيقول: ماذا فعلتَ فيها؟ يقول: ما تركتُ باباً لك إلا أنفقت فيه، فيقال له: «كذبت»!

هو أنفق وقام وسعى وأعطى وتصدق، ولكن يقال: «كذبت» أيها الكذاب!

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥) من حديث أبي هريرة ؓ.

«إنها تصدقت ليُقال: جواد وقد قيل» أنت تريد أن يُقال: كذا وكذا؛ فقد أخذت حظك أيها المسكين في الدنيا! حظك هذا الحخير الزائل، اذهبوا به إلى النار، فيذهب به إلى النار.

• بركة الإخلاص

وهذا الأمر هو أهم الأمور التي نفتقدها اليوم؛ لأنَّ بركة الإخلاص هي قبول العمل ونهاؤه ورفعته إلى الله مع عود ذلك على القلب بالنور والقوة والحياة والترقي. أن يعمل المرء لله تعالى، أن يُصاحب الله تعالى، أن يُقاطع الله تعالى، لا ينتظر جزاءً ولا شكورًا، وهذا المعنى مهمٌ سواء في معاملته لله، أم في معاملته للناس.

وقد روى الحسن رحمه الله تعالى ^(١) قصة الإخلاص التي تُبين هذه البركة؛ لأن بركة الإخلاص تظهر في الأعمال، وتزكيها وترفعها إلى الله، وربما كان العمل قليلاً، ولكن المرء مُخْلِصٌ فيه إذا به يُرفع إلى الله تعالى، وعلى العكس؛ العمل الكثير يُلقى في وجهه هباءً منثورًا، كما ذكرت الآية، لأنه لا يريد به وجه الله تعالى.

(١) الحسن بن أبي الحسن يسار البصريُّ أبو سعيد مولى زيد بن ثابت وقيل جابر بن عبد الله وقيل أبو اليسر. وَكَانَتْ أُمُّ الْحَسَنِ مَوْلَاةً لَأُمِّ سَلَمَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ الْمَخْزُومِيَّةِ رضي الله عنها. ولد لستين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه، وَكَانَ سَيِّدَ أَهْلِ زَمَانِهِ عِلْمًا وَعَمَلًا. قال أبو بردة: أدركتُ الصحابة فما رأيت أحداً أشبه بهم من الحسن. وقال خالد بن رباح الهذلي: سُئِلَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه عن مسألة فقال: سلوا مولانا الحسن، فقل له في ذلك فقال: إنه قد سمع وسمعنا فحفظ ونسينا. وقال سليمان التيمي: الحسن شيخ أهل البصرة. توفي في رجب سنة عشر ومائة. انظر تذكرة الحفاظ للسيوطي وسير أعلام النبلاء للذهبي.

يذكر الحسنُ هذه القصة يقول: كانت شجرة تُعبد من دون الله تعالى، فخرج إليها عابِدٌ فقال: لأقطعنَّ هذه الشجرة التي تُعبد من دون الله، فاعترضه الشيطان قائلاً: إلى أين؟

قال العابد: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تُعبد من دون الله.

قال: ليس لك إليها سبيل.

قال العابد: لا.

فتعاركا، فَعَلَبَ العابدُ الشيطانَ، فقال له الشيطان: هل أقول لك ما أفضل من ذلك؟

قال العابد: نعم..

قال: دَعُها ولكِ بِذَلِكَ كل يوم ديناران.

قال العابد: من يضمن لي ذلك؟

قال الشيطان: أنا أضمنها لك تحت وسادتك.

فرجع الرجل فوجد الدينارين تحت وسادته في اليوم الأول. وفي اليوم التالي لم يجد الدينارين، فقام ليقطع الشجرة، فاعترضه الشيطان قائلاً: ليس لك إليها سبيل، فتعاركا فخنقه الشيطان.

انظر إلى بركة الإخلاص في المرة الأولى:

قال له الشيطان: "إنك قد خرجتَ لله في المرة الأولى، فلم يكن لي عليك سبيل"، فلم يتمكن منه الشيطان.

"فلما خرجتَ في المرة الثانية خرجت للدينارين"، خرجت لحظ نفسك، لمصلحتها، لمدحها، لحظوظ الدنيا، لشهواتها، خرجت لأنك تُعظّم ما في نفسك من شهوة إلى المال، إلى الجاه، إلى المدح، إلى السلطان، إلى أن يقال عنك كذا وكذا، "فلم يكن لك عليّ سبيل" .. فتمكن منه الشيطان.

وهي أعمال اليوم التي تُبَيّن هذه القصة، وهو أن بركة الإخلاص ألا يتمكن الشيطان من العبد، فإذا ما عمل الأعمال على غير الإخلاص لا يعبأ به الشيطان بل يتلاعب به؛ لأن المرء لم يكن مخلصاً لله تعالى في عمله، ولم يردّ به وجه الله فإذا به لا بركة له، ولا قوة في قلبه له، ولا قوة في بدنه على هذه الأعمال الصالحة، فإذا بالشيطان يَصْرَعُهُ، إذا قام يصرعه الشيطان، إذا قام يصرعه وهكذا، كلما أراد بعمل غير الله تعالى إذا بالشيطان يتمكن منه، وإذا به لا يستطيع أن يتقدم إلى الله تعالى، وكل أعمالنا إلا من رحم الله تبارك وتعالى يشوبها ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

• شهر شعبان هو شهر الإخلاص

التركيز إذن في هذه الأيام على أن شهر "شعبان" هو شهر الإخلاص، ولينظر المرء في أقواله وأفعاله، وعباداته، ما يريد به وجه الله تعالى، وما لا يريد. حتى لا يدخل "رمضان" عليه وهو على هذه الحالة السيئة؛ لا ينتظر مغفرة ولا رحمة، فهذا سبب من الأسباب العظيمة التي يخرج بها المرء من "رمضان" ليس مغفوراً له، يخرج من "رمضان" وما أحسّ بعفته من النار، يخرج من رمضان وما أحسّ بإقباله ومحبه واستقامته وزهده، يخرج ولم يحس بتوكله وقربه إلى الله تعالى. خرج منه كما دخل فيه.

وقصة الإخلاص هي أعظم القصص، وأيام الغفلة هي أيام تربية النفس عليه بأن يكون المرء في ظاهره وباطنه لا يريد إلا الله سبحانه وتعالى في قوله وفعله وسره وعلانيته وظاهره وباطنه، لا يريد وجه الزائلين الذين لن يغنوا عنه من الله شيئاً.

وهذا الشهر وهو شهر الغفلة ينبغي أن يظهر فيه الإخلاص، لذلك كان كثير من السلف: كعبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: "إذا أصبحتم صائمين فأصبحوا مُدَّهِنين".

حتى تذهب غُبرة الصيام، حتى لا يظن بك أحد أنك صائم، وحال بعض المؤمنين اليوم على غير ذلك، تراه يظهر صومه، وأنه عصبي لأنه صائم، وأنه مصفر الوجه لأنه صائم، وكذا، وكذا مما يظهره المرء، ويحاول أن يداريه، وهو يجب أن يظهر، وتصرفات المؤمنين يعلمها الله تعالى منهم قبل أن يميزها البشر.

(١) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ بْنِ غَافِلِ بْنِ حَبِيبِ الْإِمَامِ الْحَبْرِيُّ، فَيَقِيهِ الْأُمَّةُ، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْهَنْدِيُّ، الْمَكِّيُّ، الْمُهَاجِرِيُّ، الْبَدْرِيُّ، حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ.

كَانَ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوْلَى، وَمِنَ النَّجَبَاءِ الْعَالَمِينَ، شَهِدَ بَدْرًا، وَهَاجَرَ الْهَجْرَتَيْنِ، وَكَانَ يَوْمَ الْبِرْمُوكِ عَلَى النَّقْلِ، وَمَنَاقِبُهُ غَزِيرَةٌ، رَوَى عِلْمًا كَثِيرًا. وَأُمُّهُ: هِيَ أُمُّ عَبْدِ بِنْتِ عَبْدِ وَدِّ بْنِ سُويِّ، مِنْ بَنِي زُهْرَةَ.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقول: «خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةِ مِنْ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ - فَبَدَأَ بِهِ - وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَأَبِي بِنِ كَعْبٍ وَسَالِمِ مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ» رواه الإمام مسلم (٢٤٦٤)، وَ عَنْ شَقِيقِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: "فَلَقَدْ قَرَأْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بَعْضًا وَسَبْعِينَ سُورَةً، وَلَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنِّي أَعَلَّمُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَلَوْ أَعَلَّمُ أَنَّ أَحَدًا أَعَلَّمُ مِنِّي لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ"، قَالَ شَقِيقٌ: فَجَلَسْتُ فِي حَلَّتِي أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا يَرُدُّ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَلَا يَعْيبُهُ، رواه الإمام مسلم (٢٤٦٢)، وَمَنَاقِبُهُ كَثِيرَةٌ فِي الصَّحِيحِينَ وَغَيْرِهِمَا، تُوْفِيَ سَنَةٌ: ٣٢ أَوْ ٣٣ هـ الْمَدِينَةَ.

لذلك قال: "يصبحوا مُدَّهِنِينَ" حتى تذهب عنهم غُبْرَةُ الصَّوْمِ ، فيظهرون للناس أنهم لا صوم ولا شيء، وإنما يَسْتَخْفُونَ بذلك بينهم وبين الله تعالى؛ يكفيهم أن الله تعالى يعرفهم لأن النبي ﷺ قال فيما رَوَى عن ربه: «إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي»، فهو سر بينه وبين الله تعالى، «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»^(١).

فيتعلم المرء من الصوم الإخلاص في بقية أعماله^(٢)، وشهر "شعبان" شهر المجاهدة على هذا الإخلاص التي يتهيأ بها لـ "رمضان".

(١) أخرجه البخاري (٥٩٢٧)، ومسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة ؓ. وانظر شرح هذا الحديث الشريف في "حال المؤمنين في رمضان" للمؤلف، وفيه أيضاً مزيد توضيح عن كون الصيام سرّاً بين العبد وبين ربّه عز وجلّ.

(٢) وكان أيوب السخيتاني رحمه الله تعالى إذا فَرَّقَ قلبه وجاء الدمعُ قال: ما أشدَّ الزكام! وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى إذا مَرَّصَ يجعل عند رأسه ما يأكله الأصحاء كي لا يتشبه بالشاكين.

وكان النَّخَعِي رحمه الله تعالى إذا قرأ في المصحف فدخل عليه داخل غطاءً.

وكان ابن أبي ليلى رحمه الله تعالى يصلي، فإذا دخل عليه أحدٌ نام على فراشه. وقال الحسن: كان الرجل تأتيه عبرته فيسترها، فإذا خشي أن تسبقه قام من المجلس. انتهى بتصرف من "اللطيف و اللطائف" لابن الجوزي رحمه الله تعالى.

الوظيفة الخامسة:

تحصيل مغفرة الرب عز وجل في ليلة النصف

من شعبان استعدادا للعتق من النار في رمضان

- إن الله ليطلع في ليلة النصف فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن.
- التسامح بين المؤمنين قبل ليلة النصف.
- المبادرة إلى التحلل من المظالم: «فليتحلله اليوم»
- حال السلف الصالحين في ليلة النصف من شعبان.

تُذَكَّرُ الآنَ بليلة النصف من "شعبان"؛ لأنها مما يدخل معنا في الاستعداد لـ "رمضان" وهو قول النبي ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ لَيَطَّلِعُ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَيَغْفِرُ لِكُلِّ مَشَاحِنٍ أَوْ مُشْرِكٍ إِلَّا لِلْمُشْرِكِ أَوْ مُشَاحِنٍ»^(١).

وقضية الدخول إلى "رمضان" والخروج منه خروج الرحمة والمغفرة لا بُدَّ وأن يتحقق فيها تلك المغفرة في النصف من شعبان.

تُرى هؤلاء الذين قد دخلوا "رمضان" على القطيعة، وعلى التدابر، وعلى الشُّجار، وعلى البغضاء، وعلى التنافر، وعلى الغلِّ والحسد، وسوء الأخلاق فيما بينهم. تُراهم إذا دخلوا "رمضان" يُحْصِلُونَ المغفرة؟!!

هم لم يُحْصِلُواها في "شعبان" في الليلة التي يغفر الله فيها لكل أحد إلا المشاحن، فخرجوا من "شعبان" متشاحنين فلا يغفر لهم . تُراهم يُحْصِلُونَهَا في "رمضان"؟! ...

لذلك كان من الاستعداد المهم لـ "رمضان" أن يأتي النصف من "شعبان" فلا يكن بين المؤمنين مُتَشَاحِنٌ .. ولا مُتَبَاغِضٌ .. ولا مُتَقَاطِعٌ .. ولا مُتَدَابِرٌ، يعني: قد انتفت الشَّحناء من بينهم، وانتفت البغضاء، والتقاطع والتدابر، كل أحد يُهْمُهُ أن

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٩٠) من حديث أبي موسى الأشعري ؓ، وحسنه الشيخ الألباني كما في صحيح الجامع (١٨١٩).

يُغفر له، وألا يطلع الله تعالى عليهم فيقول: «أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا»^(١). فيطلع عليهم فيغفر لكل أحد إلا مُشْرِك أو مُشَاحِن.

قد فتح الله ﷻ هذه الليلة إذاً ليكون حال المؤمن مع الله تعالى حالاً حسناً يستحق المغفرة في "رمضان"، وأن تكون حال المؤمنين فيما بينهم كذلك تستحق المغفرة، فلا يأتي إذاً هذا اليوم، أو تلك الليلة عليهم إلا وقد صَفُّوا ما بينهم، إلا وقد تسامحوا فيما بينهم، يرجون مسامحة الله، إلا وقد تجاوزوا فيما بينهم؛ يرجون أن يتجاوز الله تعالى عنهم، إلا وقد استسمح كل أحدٍ غيره فيما أتى في حقه؛ إن كان في عَرَضِهِ .. في ماله .. في أي شيء أن يستسمحه إِيَّاه كما قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ تَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ»^(٢).

فليتحللَّ اليوم .. اليوم! لا ينتظر لغد كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]

ولهذا المعنى - وهو مغفرة الله تعالى للمؤمنين في "شعبان" في ليلة النصف - استحب كثير من السلف أن تُقام هذه الليلة؛ بعضهم استحب أن يقومها جماعة في المسجد، وبعضهم قال: لا يقومونها جماعة، وإنما يقومها كل أحد بمفرده يرجو

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٥) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٤) من حديث أبي هريرة ؓ. وفي رواية الإمام أحمد (٥٠٦/٢): «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ مِنْ أَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ مَالِهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ يُؤَخَّذَ حِينَ لَا يَكُونُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، وَإِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَجَعَلَتْ عَلَيْهِ». قال الشيخ شعيب في التحقيق: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

بذلك رحمة الله جل وعلا ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] لسنا في باب بحث الأدلة في المسألة، وإنما قد صار قوم إلى ذلك، وصار قوم آخرون إلى منعه. والمقتصدون - في الوسط من كلا الطرفين - قالوا: لكل أحد أن يقومها في ليلته تلك لئلا يطلع الله على الناس فيجدهم مجتهدين وهو نائم... فبِمَ يُحْصَلُ المغفرة؟! (١)

فإذا غُفِرَ له في "شعبان" ظهرت آثار المغفرة في بقية أيام "شعبان" فأتى عليه "رمضان" على أحسن حال من أحوال المغفرة، فازداد مغفرة وازداد رحمة، وكذلك كان أهلاً لأن يأتي عليه "رمضان" فينتهي ليعتق من النار.

(١) وفي مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: « وَأَمَّا صَلَاةُ الرَّغَائِبِ فَلَا أَصْلَ لَهَا . بَلْ هِيَ مُحْدَثَةٌ . فَلَا تُسْتَحَبُّ لِجَمَاعَةٍ وَلَا فُرَادَى - فَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَى أَنْ تُخَصَّ لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ بِقِيَامٍ ، أَوْ يَوْمُ الْجُمُعَةِ بِصِيَامٍ - وَالْأَكْثَرُ الَّذِي ذُكِرَ فِيهَا كَذِبٌ مُوَضَّوعٌ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ . وَلَمْ يَذْكُرْهُ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ أَصْلًا . وَأَمَّا لَيْلَةُ النَّصْفِ فَقَدْ رُوِيَ فِي فَضْلِهَا أَحَادِيثٌ وَأَثَارٌ وَنُقِلَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُمْ كَانُوا يُصَلُّونَ فِيهَا فَصَلَاةَ الرَّجُلِ فِيهَا وَحَدَهُ قَدْ تَقَدَّمَ فِيهِ سَلَفٌ وَلَهُ فِيهِ حُجَّةٌ فَلَا يُنْكَرُ مِثْلُ هَذَا . وَأَمَّا الصَّلَاةُ فِيهَا جَمَاعَةً فَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى قَاعِدَةٍ عَامَّةٍ فِي الْاجْتِمَاعِ عَلَى الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ .. » اهـ . بحروفه من مجموع الفتاوى - المجلد الثالث والعشرون .

الوظيفة السادسة:

الانكباب على كلام الله تعالى وإدمان تلاوته:



- الإقبال على القرآن في شعبان استعدادا لرمضان.
- الحل في كلام الله تعالى.
- أوصاف القرآن وبعض المعاني المهمة المتعلقة به.
أولا: الموعظة. ثانيا: الشفاء.
ثالثا: الهدى. رابعا: فضل الله تعالى والفرح به لا بغيره.
خامسا: البركة.
- أحوال القلوب المستمعة للقرآن الكريم.
- أحوال المؤمنين مع القرآن:
الحالة الأولى: الخشوع الحالة الثانية: البكاء.
الحالة الثالثة: قشعريرة الجسد. الحالة الرابعة: زيادة الإيمان.
الحالة الخامسة: التأدب مع كلام الله
الحالة السادسة: حضور القلب والتدبر
- موانع الوصول إلى أنوار وبركات وشفاء القرآن.
- كيف يسعد المؤمنون بكلام الله تعالى ويتنعمون بالإقبال عليه وتلاوته.
- التحذير من التسويف في الأعمال الصالحات.

الإقبال على القرآن في شعبان استعدادًا لشهر رمضان المعظم

كانت الخصيصة العظمى التي تميز بها "رمضان" عن غيره هو القرآن

الكريم كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فيجب أن يكون هذا القرآن في محلّ الاهتمام الزائد للمؤمنين عن بقية الأيام؛

لأنه إذا كان المرء يستعد لـ "رمضان" بالقرآن فاستعداده به لا بد أن يكون سابقاً له؛

حتى إذا أتاه "رمضان" وجدّ حلاوة القرآن؛ لأنه قد تدرّب عليها، وانشرح صدره

بها، ودام لسانه عليه، وأقبل على التفكّر فيه، والتدبّر لآياته، والتذكّر بها، ثم أنزل

القرآن الكريم الذي هو الشفاء والرحمة على أمراضه وعلله التي يخشى منها سوء

العاقبة، وإلا خرج من رمضان لم يُحصّل شيئاً.

فهذا القرآن قد واجهنا هذه الأيام، ونحن في هذه الحال السيئة من ضعف

العزيمة، وضعف الهمة، والركون إلى الدنيا، وكذلك حالة الغفلة التي نحن فيها،

وعدم الاستعداد للقاء الله تعالى، وإنّ مما يشفي الصدور، ويُقوّي العزائم، ويرفع

الهمم، ويكون سبباً للرحمة، والبركة التي يريد المرء أن يُحصّلها أن يعود المرء مُنكبّاً

على كتاب الله تعالى.

فقد كان السلف الصالح لهم حال عجيب مع كتاب الله تعالى^(١)؛ يريدون أن يُحْصَلُوا منه الشفاء الذي ذكر الله، والهداية التي نَبَّه الله تعالى عليها، والبركة التي وصف بها كتابه.

أما الهداية والشفاء والبركة التي سنشير إليها إن شاء الله تعالى في القرآن الكريم، فهي مما يحتاجه الناس اليوم.

الحلُّ في كلام الله تعالى :

يلاحظ المرء أن سير المؤمنين والمتدينين - بصفة خاصة - في طريق الله تعالى سَيْرٌ متذبذب، متردد ليس مستقيماً، فضلاً عن أن يكون مترقياً به إلى الله تعالى .

أي: لا يكون في كل يوم في ازدياد، في سير إلى الله تعالى، وإنما يسير يوماً أو يومين، ثم يرجع عن الصلاة وعن الذكر، وعن القرآن، وتجد بينه وبين القرآن هذه الوَحْشَةَ. فحلُّ ذلك: في كلام الله تعالى.

ثم إن المرء إذا أقبل على الشّهوات، والصُّور والمناظر والدنيا وشهواتها وغير ذلك وانطبع كل ذلك في قلبه حتى أخرجه إلى الغفلة، وأخرجه إلى المكروه،

(١) قال سلمة بن كهيل: كان يقال: شهر شعبان شهر القراء، وكان حبيب بن أبي ثابت إذا دخل شعبان قال: هذا شهر القراء، وكان عمرو بن قيس الملائي إذا دخل شعبان أغلق حانوته وتفرغ لقراءة القرآن. قال الحسن بن سهل: قال شعبان: يا رب جعلتني بين شهرين عظيمين فما لي؟ قال: جعلت فيك قراءة القرآن. انتهى بتصرف من لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى.

وأخرجه إلى المعاصي، وأخرجه إلى الوسوس، والخطرات السيئة التي تملأ قلبه لا يصفو له قلبه ويستقيم على طريق الله. وحل ذلك أيضا: في كلام الله تعالى.

والبركة في ذلك الزمان قد مُحِقَّتْ أو كادت من كل شيء، وهي مصيبة حَلَّتْ علينا بسبب قلة الطاعة والعبادة، وبسبب قلة الألفة، والتكافل والتراحم بين أهل الإيمان، وبسبب الإقبال على الدنيا والانشغال بها، والزهد في الآخرة والغفلة عنها، بسبب كثرة المعاصي والذنوب التي أحاطت بنا، وبسبب قلة الإخلاص والمحبة ومعرفة الله تعالى.

ارتفعت بركة الله تعالى، ارتفعت هذه البركة في الوقت والجهد، والمال، والولد، فلم يَبَقْ وقت لأحد ليعمل فيه شيئا، ولم يبق جهد ليقوم فيه شيء، ولم يبق خُلُقٌ يستطيع أن يستوعب به شيئا، وهكذا ارتفعت هذه البركات من بركات الله تعالى بسبب ما نحن فيه من سوء ومن عدم رفع الأعمال الصالحة المنجية إلى الله تعالى.

وحل ذلك أيضا: في كلام الله تعالى.

وقد ذكر الله تعالى أن حل هذه المشاكل التي نواجهها إنما هي في الرجوع إلى كلامه سبحانه وتعالى؛ إذ القرآن سبب نزول البركة، وسبب انتشارها في الوقت، والجهد، والمال، والولد، والصحة حتى يستطيع المرء - كما كان أصحاب النبي ﷺ - أن يأتي بالأعمال التي لا يتخيل أنه يستطيعها.

تُراهم في هذا الوقت القصير الذي قضوه في الدنيا -رضوان الله تعالى عليهم- كانوا يستطيعون أن يفعلوا ذلك كله، أن يفتحوا الدنيا، وأن يجاهدوا، وأن يُصَلُّوا، وأن يقوموا لله تعالى، وأن يذكروا العلوم الشرعية، وأن يسافروا المسافات البعيدة جداً للجهاد وطلب العلم، ولم يكن متيسراً لهم هذه المركوبات التي يركبها النَّاسُ اليوم، ولا هذه الأمور التي تُخَفِّفُ عنهم مشاق الحياة، بل كانوا يتحملون كل هذه المشاق، وكل هذا التعب، ومع ذلك بُورِكَ لهم في وقتهم وبورك لهم في جهدهم، وبورك لهم في سعيهم، وبورك لهم في خطواتهم، وبورك لهم في مالهم وأولادهم، وبورك لهم في صحتهم؛ كان الضعيف منهم يقاتل على هذا النَّحو الذي سَمِعْنَا، وَيُجْرِحُ وَيُقَاتِلُ، ويمرح ويقاتل ويعود، ولم يكن هناك ما يضمنه به جراحه، أو من يقوم عليه بما تعود به صحته؟!!

وسبب هذه البركات التي نزلت عليهم، وهذه الرحمات التي حَلَّتْ بهم هو القرآن الكريم، وانظر إلى ما رُفِعَ عَنَّا منها. وإذا رُفِعَ شيء من ذلك فإننا نحن السبب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾

[الشورى: ٣٠].

أوصاف القرآن الكريم :

ونذكر شيئاً قليلاً من أوصاف القرآن و بعض المعاني المهمة المتعلقة به حتى يكون ذلك دافعاً للمرء لزيادة محبته للقرآن الكريم وإقباله عليه:

أولا الموعدة :

الله تبارك وتعالى يَمْتَنُّ على المؤمنين بكل هذه المنن والنعم - كما يقول ابن كثير وغيره من المفسرين - في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِدَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءً لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧: ٥٨].

ونستفتح بهذا المعنى الذي قد فُقدَ في حياة المؤمنين..

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِدَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الموعدة هي ذلك الزاجر الذي يحمل الناس على الطاعة، ويمنعهم عن الفحشاء والفسوق.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِدَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: تَحْمِلُكُمْ على الاستقامة، والبُعد عن المعصية، والسير في الطاعة. هذه الموعدة تأخذ بقلوبكم وعقولكم إلى الله تبارك وتعالى، وهذه الموعدة مَنَّةٌ من الله تعالى لكم، حتى لا يترككم سبحانه وتعالى بغير موعدة، تثبت أقدامكم وتحفظكم في طريقه فلا تروغوا عنه، وإنما كان من رحمته عليكم، ومِنَّتِهِ بكم سبحانه وتعالى أن أرسل إليكم هذه المواعظ في القرآن الكريم كما ذكر سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ هُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]. لعلهم يتقون به المولى سبحانه وتعالى، أو يُحَدِّثُ لهم هذا القرآن الذكرى والعظة والاعتبار التي تحملهم على السير إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ففي إضافة الربِّ لهم في قوله سبحانه: ﴿رَبِّكُمْ﴾ دليل العناية بهم، والشفقة عليهم إذ هو مولاهم ومُرَبِّيهم بنعمه.

ثانيا الشفاء :

أصيب المؤمنون اليوم بأمراض كثيرة في قلوبهم وأبدانهم، وأمراض القلوب هي الأساس في ضعف الإيمان، وقلة الطاعة، والركون إلى الدنيا، والميل إلى الشهوات، ونسيان الآخرة، والغفلة عن الرحيل إلى الله تعالى، والاستعداد لذلك، والشوق إلى لقاءه.

وهذا القرآن قد جاء ليستشفي المرء به من جميع العلل؛ من علل الشبهات والشهوات. وكلامُ الله تعالى صادق، ونحن المقصرون الخطّاءون بسبب عدم تلقي هذا القرآن الكريم التلقي الحسن الذي ذكره الله تعالى في كتابه فلم ننتفع بهذه الموعظة، ولم ننتفع بهذا الشفاء.

لَمَّا قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧] لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ كذلك، فَإِنَّ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى لَا حُلْفَ لَهُ، وَانظُرْ إِلَيْنَا وَإِلَى صُدُورِنَا، وَمَا امْتَلَأَتْ بِهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ، وَمَا امْتَلَأَتْ بِهِ مِنَ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ، وَمَا امْتَلَأَتْ بِهِ مِنَ الْآفَاتِ وَالرِّذَائِلِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا لِّضَعْفِ الْبَدَنِ عَنِ السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالَّتِي كَانَتْ سَبَبًا فِي غَفْلَةِ الْمَرءِ عَنِ تَذَكُّرِ آخِرَتِهِ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهَا، تُرَى لَوْ كَانَ صَدْرُهُ هَذَا قَدْ شَفِيَ مِمَّا هُوَ وَتَعَافَى، وَقَوِيَ عَلَى الطَّاعَةِ، وَصَارَ هَذَا الْقَلْبُ مُسْتَنِيرًا بِنُورِ الْإِيمَانِ، مُزْهَرًا

بِسْرَاجِهِ، قَدْ انْقَمَعَتْ مِنْهُ الشَّهَوَاتُ، وَانْقَطَعَتْ فِيهِ الشَّبَهَاتُ، سَارَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ صَارَ عَفِيًّا، قَوِيًّا حَيًّا كَمَا يَقُولُ الْمَوْلَى فِي الْآيَاتِ الَّتِي سَنَذَكُرُهَا بَعْدَ قَلِيلٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ثالثاً الهدى :

قوله تعالى: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والمؤمنون على هذه الحالة التي نحن فيها اليوم هدايتهم ناقصة لا شك،
بدليل حالتنا التي كررنا وصفها من قبل. ثم يعود السؤال:

مَنْ الَّذِي قَدْ اسْتَقَامَ عَلَى سِيرِهِ، وَازْدَادَ فِي دَرَجَاتِهِ، وَقَامَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْقَدْسِيِّ: « يَا ابْنَ آدَمَ: قُمْ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيْكَ »^(١) ؟

وَمَنْ الَّذِي أَكْثَرَ وَازْدَادَ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ؟

وَمَنْ الَّذِي كَانَ عَلَى حَذَرٍ مِنَ الْمَوْتِ وَخَوْفٍ مِنْهُ، إِذَا أَصْبَحَ لَا يَتَنظَرُ الْمَسَاءَ، وَإِذَا أَمْسَى لَا يَتَنظَرُ الصَّبَاحَ، وَأَخَذَ مِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ، وَمِنْ حَيَاتِهِ لِمَوْتِهِ، وَمِنْ صِحَّتِهِ لِمَرْضِهِ^(٢) ، وَسَارَ هَذَا السَّيْرَ الَّذِي يُنْبِئُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ خَافَ رَبَّهُ وَخَشِيَهِ، وَأَنَّهُ قَدْ أَقْبَلَ

(١) سبق تخريجه.

(٢) وفي صحيح البخاري (٦٤١٦) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِمَنْكِبِي فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَتَنظَّرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَتَنظَّرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».

عليه لا يتردد في إقباله سبحانه وتعالى، وتعلق به تعلق الذي لا نجاة له إلا به، ولا فلاح له إلا فيه، ولا خروج له مما هو فيه إلا بأن يكون متعلقاً بالله تعالى؟

﴿وَهُدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا المعنى قد أكدّه المولى -سبحانه وتعالى- في آية

أخرى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي بَعَثَ لِّدِينِ آدَمَ نُوْحًا وَعِيسَىٰ وَهُدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [فصلت: ٤٤].

وَحَصَّ اللهُ تعالى المؤمنين في تلك الآية الأخيرة بالهداية والشفاء فيه من دون الناس. ولأهمية الهداية فإن المؤمن يطلبها بالدعاء من الله في كل ركعة يصلّيها ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] لاحتياجه الشديد لها، وللإزدياد منها، وليهديه طرقها وأسبابها وما يكملها. لأنّ الظالمين لا يزيدهم القرآن إلا خساراً كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. فلا ينتفع بهذه الهداية والرحمة وهذا الشفاء إلا المؤمنون، وذلك على قدر إيمانهم، فالكامل هدايتهم ورحمتهم وشفائهم تامة، وغيرهم على حسب إيمانهم.

فهو كما قال المولى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي بَعَثَ لِّدِينِ آدَمَ نُوْحًا وَعِيسَىٰ وَهُدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، والمرء قد سمع

الآيات هذه مرات كثيرة، ومع ذلك لم يستهد بهداية القرآن الكريم، بل حال المؤمنين اليوم الإعراض عن هذا الكلام، والهجر له الذي يدخل في قوله تعالى في شكوى النبي ﷺ: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

قد هجروه علمًا وتعلّمًا، وتلاوةً، وحفظًا، وعملاً، ودعوةً، وشفاءً، وتحكيماً

وتحاكماً. هذه الأنواع من أنواع الهدى قد تركت حتى لم يكن القرآن على قلوبهم بهذا

الشفاء، فهل لو كانوا مُصَدِّقِينَ بآئه شفاء وآئه هدى، وآئه رحمة تراهم قد قَصَّروا

فيه؟!

مَنْ الذي حصل من ذلك شيئاً؟ من الذي حَزُنَ على أنه لم يحصل شيئاً؟ وَمَنْ الذي حاول أن يجاهد على تحصيل شيء منها؟ وَمَنْ الذي آلمه وأحزنه أن يبعد عن القرآن، وأن يكون بينه وبين القرآن هذه الوحشة، وأن يكون في الصَّفِّ الأخير الذي لم يُحْصَلْ من كلام الله تعالى لا شفاء ولا هدى ولا رحمة؟

قد جاءكم الحل من ربكم كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية التي ذكرناها، وفي آية النساء كذلك: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيَدْخُلُهُم فِي رَحْمَةِ مِنَّةٍ وَفَضْلٍ وَنَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥].

رابعاً فضل تعالى والفرح به لا بغيره :

قال تعالى: ﴿وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيَدْخُلُهُم فِي رَحْمَةِ مِنَّةٍ وَفَضْلٍ﴾ ، وقال أيضاً: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فأخبرنا أن المعتصمين به سيدخلهم في رحمة منه وفضل، وأمرهم بالفرح بفضل الله لا بغيره.

تُراهم قد فرحوا بشيء من ذلك، تراهم حصلوا شيئاً يفرحون به، ويسرّون به فيكون سبب إقبالهم على ربهم، ومحببتهم له، فتتنزل عليهم رحمته، وتحيط بهم

هدايته، ويستضيء لهم نورهم؟ إنّ الذي يُحْصِلُونَ به ذلك هو اعتصامهم بالله، واعتصامهم بالقرآن الكريم.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿٢٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ ﴾ معنى ﴿ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ ﴾ : أي اعتصموا بالقرآن النور المبين الذي أنزلناه، أو اعتصموا بالله، وكلا التفسيرين صحيح ، فعلى التفسير الأول ﴿ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ ﴾ يعني: بهذا النور المبين الذي أنزلنا، ويشهد لذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. أو اعتصموا به أي بالله على التفسير الثاني.

فعلينا إذن الاعتصام بهذا القرآن، إذ هو عِصْمَتِنَا التي ينبغي أن تكون هدفنا هذه الأيام، ومقصودنا هذه الأيام؛ لنزيل تلك الوحشة وذلك الجفاء ، ولرفع تلك البلايا التي نزلت علينا ، والمصائب التي حَلَّتْ بنا أفرادًا وجماعات ، ولنكون الأقرب إلى الله .

قوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ هو سبحانه الذي يمن عليهم بالرحمة والفضل الذي يكون سبب الفرح، وهو خير مما يجمعون. وكأنهم لما أنزل عليهم الكتاب شفاءً لما في صدورهم ورحمةً بهم ، وهدايةً لهم، إذا بهم يتركونه ويحاولون أن يجمعوا حُطَامَ الدُّنْيَا الزائل، فذكّرهم بأن غفلتهم عن كتاب الله تعالى مع جمعهم الدنيا كلها لا تساوي فرحهم بفضل الله ورحمته، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ فبذلك فَلْيَسْرُوا ... فبذلك فَلْتَنْسِرْ حُ قلوبهم ... فبذلك فليتنعموا ... ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾. لا شك أن فضل الله تعالى ورحمته هو الخير الذي ينبغي أن يحرص عليه المرء.

المعنى الثاني: أن هذا الخير الذي تحرص عليه، وذلك الفضل الذي تستمسك به، وتحاول أن تحصله من ربك لن يُضيع عليك الدنيا التي تخاف عليها، بل سيكون ذلك سبباً في أن تحصل الدنيا التي تُضَيِّعُ بها الشِّفاء والرَّحمة والهداية والبركة، ولو حصلت هذه الهداية والرحمة لأنك فضل الله: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

وتُراهم إذا جمعوا هل يجمعون شيئاً لم يكتب لهم؟ كلا، وإنما يجمعونه وقد فضّلوه على رحمة الله، وفضّلوه على هداية الله، وفضّلوه على فضل الله.

تُراهم خائبين خاسرين، أم تُراهم مسرورين فرحين بأمر الله تعالى مُنعمين بهذا النعيم الذي أتاهم، مستأنسين به، مُقبِلين عليه، أم هم غافلون عنه؟

إن حزن المؤمنين اليوم إنما ذهابه أن يفرحوا بالله تعالى، أن يفرحوا به في طاعتهم إياه، وفي رضاهم بقضائه وقدره، أن يفرحوا به سبحانه وتعالى فيما يعطيهم من القوة، والمدد، وفيما يعطيهم سبحانه وتعالى من النور والهداية، وفيما يقوم في قلوبهم من حلاوة الإيمان والطاعة ومشاهدة الآخرة، فيما يكون به قوتهم على السير إلى الله تعالى، وأن يأخذ بأيديهم إليه، ذلك يُذهب عنهم نكد الدنيا وضيقها، ويُذهب عنهم شقاءها وعنتها، ويُذهب عنهم كذلك كل آلامهم، وأوجاعهم، فإذا بهم في عامة أحوالهم فرحين بالله تعالى؛ لأنه قد وفّقهم لما لا يمكن لأحد أن يوفّقهم إليه، وأعانهم بما لا يستطيع أحد أن يعينهم عليه، من طاعتهم له، ومن اجتباؤه لهم، ومن إقبالهم عليه، وشرح صدورهم بشوقهم إلى ربهم، وكثرة ذكرهم له، وسكينتهم به، وطمأنينتهم إليه سبحانه وتعالى. فماذا يريد المرء بعدئذ؟

لو حَصَلَ ذلك في الدنيا أو شيئاً منه حصل نعيم الآخرة؛ لأن ذلك نعيم الدنيا، وهو علامة وأمانة على تحصيل نعيم الآخرة، مَنْ لم يُحَصِّله في الدنيا لا يُحَصِّله في الآخرة، ولذلك قال في الحديث: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(١).

مَنْ الذي يحب لقاء الله ويحرص عليه، ويسارع له، ويعمل كل العمل والجهد لِيُحَصِّلَ ذلك الشوق، وليأتس بذلك الأنس؟

ما الذي يمنع المؤمنين من تحصيلها؟

قد رأينا إذا أَنْ من أعظم الأعمال التي ينبغي أَنْ يُسْتَعَدَّ بها لـ "رمضان" - وهو ما افتقدناه في "رمضان" وفي غير "رمضان" وكان سبباً من الأسباب المباشرة في ضعف القلب ومحق البركة ونقص الهداية ومنع فضل الله تعالى عن المؤمنين - هو الاهتمام بكلامه سبحانه وتعالى، لذلك نَذْكُرُ معنى آخر مُهمًّا هو: البركة.

خامسا البركة :

وهي التي انمحقت، أو كادت من أوقات المؤمنين وجهدهم، فلم يبق لهم شيء فتمر أيامهم وتدور هكذا دواليك، وسرعان ما يصلوا إلى نهايتهم، وينزلوا في محطاتهم قريباً إلى الله تعالى ولم يحصلوا عملاً مباركاً يليق بلقاء الله تعالى.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣) من حديث عبادة بن الصامت ؓ.

وهذه البركة تعود بالرجوع إلى كتاب الله؛ قال الله تعالى فيها: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

فإذا قال الله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ فإن تلاوته وتدبره، وتفهمه، وحفظه وتعلمه، وتعليمه، والتحاكم إليه، والاستشفاء به من عِلل القلب والبدن، كل ذلك إذا حصله المرء فإنه يحصل به تلك البركة التي ذكر الله تعالى، وكلما ازداد المرء من ذلك ازداد بركة.

قال تعالى: ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. فهذه الآيات الكريبات تبين بركة القرآن في تدبر الآيات والتذكر، وهما سمتا أولى الألباب، ثم يبنني عليهما الاتباع والتقوى، فتلك طرق قد بينتها الآيات الكريبات لنزول البركة. وبعد ذلك كله فإن للقلوب مع هذا القرآن الكريم أحوال.

لذلك كان يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «إِنَّ الْبَيْتَ لَيَسَّعُ عَلَى أَهْلِهِ، وَتَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَهْجُرُهُ الشَّيَاطِينُ، وَيَكْثُرُ خَيْرُهُ أَنْ يُقْرَأَ فِيهِ الْقُرْآنُ. وَإِنَّ الْبَيْتَ لَيَضِيقُ عَلَى أَهْلِهِ، وَتَهْجُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ، وَيَقِلُّ خَيْرُهُ أَنْ لَا يُقْرَأَ فِيهِ الْقُرْآنُ.»^(١)

(١) أخرجه الدارمي في سننه موقوفاً على أبي هريرة رضي الله عنه، قال حسين سليم أسد: «إسناده صحيح وهو موقوف على أبي هريرة». اهـ، وقد روي بنحوه مرفوعاً بإسناد فيه مقال.

وإذا نَظَرْنَا إلى حال الصحابة ؓ ، وحال النبي ﷺ ، وما كان يقرؤه في ركعة واحدة - صلوات الله وسلامه عليه - بالبقرة ، والنساء ، وآل عمران ، والمائدة؛ في ركعة واحدة!! ، وَيَقِفُ عند كل آية ، وإذا جاءت آيةُ رحمة دَعَا ، وإذا جاءت آية عذاب تَعَوَّذ ، وإذا جاءت آيةُ دعاء دعا ، وإذا جاء استغفارٌ استغفَرَ ، ثم ركع ركوعًا طويلًا قَدَّرَ هذا القيام ، وسجد قَدَّرَ هذا القيام^(١) .

إذا حَسِبْتَهَا بحسبِ الناسِ اليومَ فإنَّ الليلَ كُلَّهُ لا يتسع لهذه الركعة الواحدة لا يتسع لها ، وهو ﷺ كان يصلي إحدى عشرة ركعة في ليله^(٢) ، ولو حَسِبْتَهَا بهذا المقدار الذي نقرأه اليوم تحتاج إلى ثلاثة عشر ساعة!!

إِذَا لَوْ تَدَبَّرْتَ هذه المعاني التي ذكرنا لعلمتَ كيف كان القرآن سببًا للبركة في الوقت ، والجهد ، والمال ، والنفس ، والعقل ، والعلم ، والولد ، والبيت ، وكل ذلك مع حضور الملائكة ، وسماعها لهذا الذِّكْرِ والقرآن^(٣) .

لذلك قال عمرو بن العاص ؓ قال: «كُلَّ آيَةٍ دَرَجَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَمَصْبَاحٌ فِي

يُؤْتِكُمْ»

(١) انظر روايات الحديث في صحيح مسلم (٧٧٢)، والترمذي (٢٦٢)، والنسائي (١٠٠٩)، وغيرهم من حديث حذيفة ؓ.

(٢) أخرجه البخاري (٩٩٤)، ومسلم (٧٢٤) من حديث عائشة ؓ.

(٣) وأخرج البيهقي رحمه الله تعالى في الأسماء والصفات عن الحسن يقول: قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ؓ: «لو أن قلوبنا طهرت ما شيعت من كلام ربنا ، وإني لأكره أن يأتي علي يوم لا أنظر في المصحف». وما مات عثمان ؓ حتى حُرق مصحفه من كثرة ما كان يديم النظر فيه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ فَقَدْ حَمَلَ أَمْرًا عَظِيمًا؛ لَقَدْ أُذْرِجَتِ النَّبُوءُ بَيْنَ كَتْفَيْهِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوحَى إِلَيْهِ»^(١)، وهذا هو الحق الذي ينبغي أن يكون، أن يفهمه الإنسان؛ أنه قد أُذْرِجَتِ النَّبُوءُ بَيْنَ كَتْفَيْهِ، يعني: قد حَصَلَ هذه الدرجة العظيمة التي فيها سببُ السعادة في الأولى والآخرة، والتي ينبغي أن تُرَكِّزَ عليها^(٢) هذه الأيام؛ لنُخْرِجَ به من هذا الوَحْل من الغفلة، والمصائب والآلام التي قد أَحَاطَتْ بنا.

أحوال القلوب المستمعة للقرآن الكريم:

يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

- (١) أخرجه الأجرى في «أخلاق حملة القرآن» موقوفاً على عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.
- (٢) يُكْتَفَى بهذا القدر المختصر من الكلام عن بركة القرآن الكريم، ولزيد من التفاصيل والتوضيح راجع سلسلة (من بركات وأنوار القرآن الكريم) للمؤلف، فقد ذكر فيها أن القرآن الكريم هو سبب بركة الدعوة ونورها، وكيف كانت قلوب كثير من المشركين تتحول إلى قلوب مؤمنة بمجرد سماع القرآن الكريم، وذكر أن من بركة القرآن النصر في الدنيا موضعاً ذلك بما حدث في غزوة حنين، وفي موقعة اليمامة، وذكر أيضاً آثار ظهور بركة القرآن على المرء في الآخرة، كما ذكر بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي شددت على وجود البركة في بعض سور القرآن الكريم، كما ذكر شيئاً غير قليلٍ من المعاني المهمة المتعلقة بالآيات الكريمة التي تناولت بركة القرآن الكريم. كما خصص المؤلف فصلاً كاملاً فريداً للآيات القرآنية التي تحدثت عن نور القرآن الكريم، وذكر فيه كثيراً من المعاني المهمة المتعلقة بتلك الآيات.

وقد يظن ظانٌ أن هذا الكلام بعيد عن الموضوع، ولكنه في قلب هذا الموضوع . « **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى** » وهو أن الاستفادة بما سبق من الموعظة التي وعظ الله تعالى بها المؤمنين: « **لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** » .

ويذكر الإمام "ابن القيم" في هذا المعنى: أن القلب حتى يتأثر بهذه الموعظة، فلا بد أن يكون هناك المؤثر الذي يُؤثر، وهناك المحل الذي يقبل هذا التأثير، ولا بد أن يوجد شروط لحصول هذا التأثير، وأن تتنفي موانع التأثير^(١) .

ومعنى هذا الكلام:

أن يكون هناك القرآن الكريم وهو المؤثر الذي يتأثر به الناس، وأن يكون هناك المحل القابل لذلك، وهو القلب، ويشرط لذلك؛ أن يؤثر المؤثر في المحل؛ يعني: أن يؤثر القرآن في القلب؛ أن يلقي السمع والإنصات إليه، وهو الشرط.

ورابع ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: أن تتنفي موانع السمع من اللهو عنه، والغفلة عنه، وعدم الإنصات له الإنصات الكافي، وعدم الاستماع له كما قال عز وجل:

﴿ **وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

(١) انظر الفوائد لابن القيم / ص ٣ .

فشرط تحصيل هذه الرحمات كما قال هو الإنصات والسمع من ناحية.

ومن ناحية ثانية: هو التلاوة والتدبر والفهم كما قال في الآية التي أشرنا إليها من قبل: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

فبيّن أن تحصيل الهداية، وتحصيل البركة، وتحصيل الرحمة، وتحصيل الفضل لا بد أن يتحقق له السمع والإنصات للتلاوة، وأن يتحقق له بعد ذلك التدبر والفهم، ثم الاتّباع والعمل والتقوى كما قال تعالى: ﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

وكأنّ البركة والرحمة والهداية التي في القرآن متعلقة بالتلاوة والتدبر والإنصات والفهم والعمل كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ [البقرة: ١٢١]، وأيضاً كما قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴾ [فاطر: ٢٩].

علمت إذن هذه البداية وما عليك إلا أن تتحقق بهذه المعاني لكي تُحصّل البركة والرحمة، وقد يسأل السائل كما يقول الإمام ابن القيم: إذا كان ذلك كذلك، فلماذا قال سبحانه وتعالى «أو» في قوله جل وعلا: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]؟

الجواب: لأنّ النّاس المحصلين لذلك فريقان؛ وغيرهم لا يحصل شيئاً:

الفريق الأول قلوبهم حيّة: فهي تتأثر بالقرآن مباشرة؛ تجول في معانيه، وتتدبر في آياته، وتزداد به إيماناً، وتزداد به يقيناً كما سنذكر الآيات التي تدل على شيء من ذلك، وهذا هو القلب الحي الذي قال الله تعالى فيه:

﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فهذه الحياة هي حياة القلب الذي ليس بينه وبين القرآن حواجز، وليس بينه وبين القرآن شهوات، ولا آفات، ولا مرديات، ولا مهلكات، ولا موانع، وإنما يتنزل عليه القرآن فإذا به متدبرٌ له، سامعٌ له، منصتٌ له، عاملٌ به، يَضَعُهُ على أمراضه وعِلَلِهِ فيستشفي بها، والحال الأعلى الأَجَلُّ من ذلك حاله المشرف ﷺ كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»^(١) ﷺ، يعني: انطبع هذا القرآن في القلب، فظهر على تلك الجوارح.

والفريق الثاني هو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

قلبه ليس بهذه الدرجة من الحياة، فهذا يحتاج لأن يتدبر هذه الآيات، وحتى تقع هذه الآيات على قلبه موقع الشفاء، وحتى يتنزل هذا القرآن على قلبه تنزُّل الرحمة، وحتى يصيب منه البركة، وحتى يصيب منه هذا النور وهذه الحياة لا بد وأن يُلْقِيَ السَّمْعَ، وأن يجاهد أن يكون منصتاً كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وأن يكون في نفس الوقت حاضر

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦ / ٩١) من حديث سعد بن هشام ﷺ. وقال الشيخ شعيب في التحقيق:

حديث صحيح .

القلب مقبلاً عليه ، قد قطع كل الشواغل عنه، حتى يكون سبباً لهدايته، ودخول النور إليه.

فأنت بين أمرين:

بين قلب حي لا يحتاج لشيء غير القرآن، فهو نازلٌ عليه، متفهمٌ له، متدبرٌ له، يعمل به، يَحْزُنُ لوعيده، ويفرح لرحمته ويقوم بأمره، وينتهي عن نهيه، ويتعظ بقصصه ومواعظه، ويسير به السير الذي كان عليه حال النبي ﷺ، أو أنت لم تصل بعد إلى هذه الدرجة فتحتاج إلى الإنصات، وشهود القلب حتى تنزل عليك هذه الرحمات.

ونحن كما ترون - إلا من رحم ربي - حالتنا ليست على الإنصات وحضور القلب حال قراءة القرآن، ولا قلوبنا هذه حية من أصلها حتى تقوم بذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: قلب حي: ﴿أَوَأَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. إذا لم يكن على هذه الدرجة من الحياة، وهو حاضر، شاهد، يشهد قلبه هذه المعاني.

وهذا يوضح لنا الأحوال التي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون، واسمع إلى قول الله تعالى في هذه الآيات:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨] هذه الأولى، وقال أيضاً: ﴿أَوَأَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فبعد إلقاء السمع قال: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ

فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴿٢﴾ وقرآن الله تعالى وكلامه كُلُّهُ حَسَنٌ، أما "الأحسن" هذه فهي متعلّقة بالمكَلَّفِ نَفْسِهِ الذي يرى هذه الأمور التي تُقَرِّبُهُ إلى الله تعالى، فتكون في حقه هي الأحسن والأكثر تأثيراً من غيرها وبسببها يكون أكثر حياةً وإقبالاً وعملاً.

ونرجع إلى السؤال المهم: كيف يحصّل المرء هذه الأحوال؟

والجواب: أن يجاهد المرء نفسه حتى تكون حالته كحال المؤمنين مع القرآن الكريم
كما وصفهم الله تعالى في كتابه العزيز. وهو ما سنذكره في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى.

أحوال المؤمنين مع القرآن الكريم

الحالة الأولى: الخشوع:

ذكر الله تعالى أحوال المؤمنين مع القرآن فقال:

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

ومعنى الآية: أنه لو أنزل هذا القرآن على جبل رأيت خاشعاً، متواضعاً، ذليلاً. و"متصدعاً" يعني: قد تشقق من نزول القرآن عليه؛ مِنْ خَوْفِهِ وتأثيره به.

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ لأولئك الذين لم يصلوا بعد إلى حالة الجبال الصُّم، وإلى هذه الصخور الصلدة بحيث لم يتأثروا بالقرآن، ولم يخشعوا عنده، ولم يتصدعوا لوعده ووعيده، ولم يكن سبب موعظتهم، وسبب خشوعهم، وسبب تَذَلُّلهم وانكسارهم، وبالتالي سبب إقبالهم على ربهم، وحزنهم لما فاتهم من حظهم من الله تعالى.

وكأنه يعيب عليهم أن الجبال لو نزل عليها القرآن ما كان حالها كحالهم؛ فالجبال الرواسي - هذه الجلاميد الصماء - حالها أفضل حالاً من حال هذه القلوب القاسية التي ينزل عليها القرآن فلا تتأثر وتخشع، ولا تتذلل وتتواضع!

الحالة الثانية: هي البكاء:

والحالة الثانية وهي البكاء: ذكرها القرآن الكريم كذلك ليبدأ المرء تمرينه عليها في هذه الأيام بعد الاستماع، وبعد التدبر والإنصات وحضور القلب؛ ليكون سبباً في أن يأتي "رمضان" وقد امتلأ قلبه من كلام الله تعالى، فيكون سبباً لنزول الرحمة والعتق من النار، وأن لا يخرج من "رمضان" كما دخل فيه كما قال النبي: «وَرَعِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانٌ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ»^(١).

هذه المواضع التي تهيؤه لئلا يُحْصَلَ الخسارة والخيبة مرة أخرى.

لذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

فينبغي للمؤمنين إذا تلي عليهم هذا القرآن أن يخروا له سُجَّدًا وبُكْيًا كما في الآية التي ذكر الله تعالى في سورة مريم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وهذا معناه أنهم إذا سمعوا هذه الآيات أصابتهم بهذا البكاء الذي يدُلُّ على تأثرهم، وإذا البكاء هو أسرع شيء إلى أعينهم؛ لأنها قد رأت الوعد والوعيد، وشاهدت مشاهد الآخرة، واقترب رحيل الدنيا، وشاهدت القبر وعذابه، والبعث

(١) سبق تخرجه.

وما فيه من أهوالٍ وكُربٍ، وشهادةٍ موقفها بين يدي الله تعالى الذي يَبْعَثُ على البكاء ليلاً ونهاراً، «وقد كان النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن يبكي، ولصدره أزيز من البكاء كأزيز المرجل»^(١)، وهو القدر الذي يغلي الماء فيه، وكما صورهم الله سبحانه وتعالى فأجلى صورتهم وحسَّنهما فقال:

﴿ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ تَجْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَتَجْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

هذان الأمران مُهَيَّان: البكاء، وزيادة الخُشُوع.

لذلك: كان "ابن عباس" ؓ إذا تليت الآية يقول: انتظر! هذا هو السجود فأين البكاء؟

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده (٤/ ٢٥ ميمنية)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٣٠). قال الشيخ شعيب في التحقيق: (إسناده صحيح على شرط مسلم). اهـ. قال ابن حبان رحمه الله تعالى مُعلِّقاً على هذا: «في هذا الخبر بيان واضح أن التحزّن الذي أذن الله جل وعلا فيه بالقرآن واستمع إليه هو التحزّن بالصوت مع بدايته ونهايته، لأن بدءه هو العزم الصحيح على الانقلاع عن المزجورات، ونهايته وفور التشمير في أنواع العبادات، فإذا اشتمل التحزّن على البداية التي وصفتها والنهاية التي ذكرتها صار التحزّن بالقرآن كأنه قذف بنفسه في مقلع القربة إلى مولاه ولم يتعلق بشيء دونه» اهـ.

(٢) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ الْبَحْرِيُّ أَبُو الْعَبَّاسِ الْهَاشِمِيُّ حَبْرُ الْأُمَّةِ، وَفَقِيهُ الْعَصْرِ، وَإِمَامُ التَّفْسِيرِ وَتَرْجِمَانُ الْقُرْآنِ، ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، الْقُرَشِيُّ، الْهَاشِمِيُّ، الْمَكِّيُّ، الْأَمِيرُ ﷺ. مَوْلِدُهُ: بِشَعْبِ بَنِي هَاشِمٍ، قَبْلَ عَامِ الْهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ. صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ شَهْرًا، وَحَدَّثَ عَنْهُ بِجَمَلَةٍ صَالِحَةٍ. قَالَ فِيهِ ﷺ:

لذلك أيضاً كان عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ^(١) يقول: ((ابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا بُكَاءَ فَتَبَاكُوا)) ^(٢). يعني: اتلوا وابكوا، فإذا لم تبكوا فتباكوا، وهي حالة تُظهِر مدى ما تأثر القلب به من خشوع، فيظهر هذا الخشوع على الجوارح بقشعريرة الجلد، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣].

وإذا لم يستطع المرء أن يبكي، أو أن يتباكى فليبك على موت قلبه ... فليبك على حاله التي لم تصل إلى هذا التأثير..

فهذا الموضوع إذاً من مُهِمَّاتِ موضوعات الدين: أن ترى نفسك خاشعاً متصدعاً باكياً عند قراءة القرآن.

الحالة الثالثة: قشعريرة الجلد :

(اللَّهُمَّ فَهِّمْنِي فِي الدِّينِ وَعَلِّمْنِي التَّوْبِيلَ) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢٨/١) وقال الشيخ شعيب في التحقيق: (إسناده قوي على شرط مسلم) هـ . توفي سنة ٦٨ هـ بالطائف. انظر السير وتهذيب التهذيب بتصرف.

(١) عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهبي الإمام، الحزب، العابد، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن صاحبه، أبو محمد. وقيل: أبو عبد الرحمن. وقيل: أبو نصير القرشي، السهبي. وكيس أبوه أكبر منه إلا يأخذي عشرة سنة، أو نحوها. وقد أسلم قبل أبيه رضي الله عنه. وله مناقب، وفضائل، ومقام راسخ في العلم والعمل، حمل عن النبي صلى الله عليه وسلم علماً جماً. توفي في ذي الحجة سنة ثلاث و ستين هـ. انظر السير وتهذيب التهذيب بتصرف.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه موقوفاً عليه (٤ / ٦٢٢) وصححه، ووافقه الذهبي بقوله: على شرط البخاري ومسلم .

وقد بينت هذه الآيات معنى آخر من المعاني التي تكون عليها حالة المؤمنين كما ذكر الله -تبارك وتعالى- في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًا تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣].

إذا كانت أعينهم تبكي عند سماع القرآن فكذلك أيضاً عند سماعه تقشعر جلودهم له خوفاً وخشية من وعيد الله تعالى فيه ، وما ذكر، ثم يصيبهم الرجاء والرحمة، فتلين هذه الجلود والقلوب مرة أخرى لله تعالى.

فبالخوف والرجاء يستطيع المرء أن يسير إلى الله تعالى.

فهذه القشعريرة التي تصيب أجسامهم، وهذا الدمع الذي تفيض به أعينهم، هو دليل حياة القلب، ودليل الإقبال على الرب، ودليل الاتعاظ بالموعظة والتذكر بهذه الذكري التي أشار الله -تبارك وتعالى- بها إلى المؤمنين.

والمرء لا يحتاج إلى أن نقول له انظر إلى حالك أيها المسكين !! أين بكاؤك وخشوعك الذي تذكر !؟

الحالة الرابعة: زيادة الإيمان :

ونبيّن حالة المؤمنين الأول في قوله ﷺ: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَيْدَةً إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

فإذا كان الخشوع والبكاء الذي ذكرنا، وقشعريرة الجسم، والتصدع الذي ذكر الله تعالى دليلاً على أن تأثر المرء بهذا الكلام صادق، وليس كمن يسمع القرآن

فيكي، ثم ينصرف إلى دنياه وهُوِهِ مرة أخرى، وكأن شيئاً لم يكن، أو يقشعر جلده شيئاً، ثم يعود مرة أخرى إلى ما كان فيه من اللعب والغفلة، لا، وإنما قال المولى: ﴿ فَمَنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ وهذه فيها معنيان :

المعنى الأول: هو توأصيهم حال سماع القرآن أن يقول بعضهم لبعض: ماذا أفادك القرآن؟ ازددت به إيماناً أم لا؟ ارتفعت به درجة الإيـان أم نزلت؟ ازددت به محبة لله تعالى؟

ازددت به طاعةً واقتراباً من الله سبحانه وتعالى؟ ازددت به زهداً في الدنيا وإقبالاً على الآخرة؟ ازددت به رفعةً ودرجةً عند الله تعالى كما أخبر النبي ﷺ عن حال صاحب القرآن: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتَّلْ كَمَا كُنْتَ تُرْتَلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنَزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا»^(١)

﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾؟ فَهَلْ مِنْ سَائِلٍ يَسْأَلُ عَنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ؟!

المهم: زادتهم إيماناً أو لا؟ الجواب: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤].

المعنى الثاني في قوله: "يستبشرون"، لقد حُذِفَ مفعول الفعل هنا ليؤكد عموم الاستبشار، يعني: يستبشرون بماذا؟ يستبشرون بكل شيء، بكل ما يكون

(١) أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، و الترمذي (٢٩١٤) وقال حديث حسن صحيح، كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه مرفوعاً.

سببا لبشراهم في الدنيا والآخرة من فضل الله تعالى، يستبشرون بزيادة الإيمان ... يستبشرون برحمة الله ... بفضل الله ... برفع درجاتهم ... يستبشرون بأن الله تعالى قد أحبهم، أن -الله تبارك- وتعالى أعدَّ لهم الثواب الجزيل، وأن الله تعالى قد قبلهم، وأن الله تعالى قد رفع درجاتهم، يستبشرون بكل ما يمكن أن يكون من بشارة يستبشرونها المرء في الأولى، يريد بها الدار الآخرة، ويريد بها ما عند الله تعالى.

﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدْمَةٌ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٥]. نعوذ بالله تعالى من ذلك، ونحن في حال بين الحالين فانظر إلى إصلاحها.. وانظر إلى ما ينبغي أن يكون عليه قلبك حين نزول القرآن عليه.

الحالة الخامسة: التأدب مع كلام الله :

أول ما يتميز به تالي القرآن هو أن يكون متأدبًا مع كلام الله تعالى، بأن يكون متوضئًا، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ^(١)، مُتَخَشِّعًا، مُطَرِّقَ الرَّأْسِ، جالسًا كأنه يجلس بين يدي أستاذه الذي يُعَلِّمُهُ كَلَامَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، مُقْبَلًا عَلَى كَلَامِ اللَّهِ جَل وَعَلَا.

فإذا ما تحقق له ذلك فإنه يُوشِكُ أَنْ يُقْبَلَ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، أما تلك الحالة التي نراها في بعض الناس؛ أن يكون أحدهم مُتَكَبِّرًا، أو مُتَكَبِّرًا، أو على حالة من الحالات التي تبين عدم اهتمامه وتعظيمه لكلام الله تعالى، وأنه يتلوه كما

(١) عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَيِّدًا، وَإِنَّ سَيِّدَ الْمَجَالِسِ قُبَالَةَ الْقِبْلَةِ" رواه الطبراني في الأوسط (ح ٢٣٥٤)، وقال المنذري في الترغيب (٤٦٦٣): رواه الطبراني بإسناد حسن.

يتلو كلامًا آخر، أو يقرأه ويُقبل عليه كما يُقبل على شيء من الدنيا، يتساوى عنده كلام الرب وكلام العبد، لا! لا ينبغي ذلك.

ولكن المؤمن يكون على هيئات الأدب والخشوع والإقرار والإقبال ينتظر ذلك الفضل من الله تعالى. وإن كان على أي حال يأخذ فضله وأجره، ولكنه كما قال تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

فبين أحسن أحوالهم أن يقرأوا قائمين، أو أن يذكروا الله تعالى قائمين، ثم قاعدين، ثم مضطجعين. فمدح الكل، ولكنه قدم هؤلاء القائمين..

لذلك استنبط أهل العلم منها:

أن أحسن حالة، وأتم هيئة يُقرأ فيها كلام الله تعالى أن يكون قائمًا في الصلاة في المسجد؛ فهي تلك الحالة التي ينبغي أن يتحلَّى بها المرء كما قال:

﴿يَتَأْتِيَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١-٢].

فهاتان الحالتان التي ينبغي أن لا ينساهما أهل الإيمان، وأن يُلازموهما:

حالة الترتيل، وحالة البكاء.

وهما الحالتان اللتان يُقصر فيهما المرء في قراءته لكلام ربه، وبالتالي تقل عظمة كلام الرب جلَّ وعلا في قلبه، ويقلُّ أجر هذا المرء وثوابه، ويقل انتفاعه بهذه الآيات الانتفاع الذي يحبي به القلب، وهذه الآيات التي إن انتفع بها المرء فإنه يُقبل

على الله تبارك وتعالى، ويمجد حلاوة الإيمان، وحلاوة الطاعة، وتُخَفُّ عليه أسباب النكد والضيق، وأسباب المعصية وشؤمها. يخف عليه ذلك كله فإذا به إنسان جديد مُقْبِلٌ على ربه يتدبر آياته ويتلوها.

والترتيل يبيِّن هذا المعنى -ليست هذه الهدرمة التي يقرؤها الناس اليوم- وليس هذه القراءة التي لا يتدبرون فيها كلام الله تعالى، وإن كان من فضله وكرمه وجوده سبحانه وتعالى أن يُعْطَى لكلِّ تالٍ لكلامه من الأجر ما يناسبه؛ لا يَجْرِمُ أحداً، إلا أن يخرج عن حد التدبر، والفهم، وحضور القلب، فأثى يكون ذلك مقبلاً على ربه؛ إذ لا يَقْبَلُ الله تعالى من القلب اللاهي الغافل عنه جل وعلا؟^(١)

(١) بالإضافة إلى آداب قراءة القرآن التي أشرنا إليها نذكر بعض الآداب الأخرى مختصرة حتى تتم الفائدة، قال الإمام أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادي الأجرِّي:

(باب أدب القراء عند تلاوتهم القرآن مما لا ينبغي لهم جهله: وأحب لمن أراد قراءة القرآن، من ليل أو نهار أن يتطهر، وأن يستاك وذلك تعظيم للقرآن؛ لأنه يتلو كلام الرب عز وجل؛ وذلك أن الملائكة تدنوا منه عند تلاوته للقرآن، ويدنو منه الملك، فإن كان متسوكاً وضع فاه على فيه، فكلما قرأ آية أخذها الملك بفيه، وإن لم يكن تسوك تباعد منه، فلا ينبغي لكم يا أهل القرآن أن تباعدوا منكم الملك، وأحب أن يكثر القراءة في المصحف لفضل من قرأ في المصحف، ولا ينبغي له أن يحمل المصحف إلا وهو طاهر فإن أحب أن يقرأ في المصحف على غير طهارة فلا بأس، ولكن لا يمسه، ولكن يصفح المصحف بشيء، ولا يمسه إلا طاهراً، وينبغي للقارئ إذا كان يقرأ فخرجت منه ريح أمسك عن القراءة حتى تنقضي الريح، ثم إن أحب أن يتوضأ ثم يقرأ طاهراً فهو أفضل، وإن قرأ غير طاهر فلا بأس منه، وإذا تئأب وهو يقرأ، أمسك عن القراءة حتى ينقضي التئأب، ولا يقرأ الجنب ولا الحائض القرآن، ولا آية، ولا حرفاً واحداً، وإن سبح أو حمد أو كبر وأذن فلا بأس بذلك، وأحب للقارئ أن يأخذ نفسه بسجود القرآن كلما مر بسجدة سجد فيها،... والذي أختار له أن يسجد كلما مرت به سجدة؛ فإنه يُرضي ربه عزَّ وجلَّ ويغيظ عدوه الشيطان،

الحالة السادسة: حضور القلب والتدبر :

والحالة التالية التي ينبغي أن يكون عليها تالي القرآن الكريم؛ ليكون له عبرة وغذاء وشفاء ونورًا وهداية ورحمة، يستعد بهذه الحالة لـ "رمضان" وبعد "رمضان"، وأن يكون ذلك دأبه وحاله مع الله تعالى، هذه الحالة هي حضور القلب والتدبر.

وروي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ اغْتَرَكَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ يَا وَيْلَهُ أَمَرَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأَمُرْتُ بِالسُّجُودِ فَمَعَصَيْتُ فِلي النَّارِ» وأحب لمن كان جالساً يقرأ أن يستقبل بوجهه القبلة، إذا أمكن؛ وأحب لمن تلا القرآن أن يقرأه بحزن، ويبكي إن قدر، فإن لم يقدر تباكى، وأحب له أن يتفكر في تلاوته، ويتدبر ما يتلوه، ويستعمل غض الطرف عما يلهي القلوب، ولو ترك كل شيء حتى ينقضي درسه كان أحب إلي؛ ليحضر فهمه، فلا يشتغل بغير كلام مولاه، وأحب إذا درس فمرت به آية رحمة سأل مولاه الكريم، وإذا مرت به آية عذاب استعاذ بالله عز وجل من النار، وإذا مر بآية تنزيه لله عز وجل سبح الله وعظمه، وجميع ما أمرت به التائي للقرآن موافق للسننة وأقويل العلماء، وجميع ما ذكرته ينبغي لأهل القرآن أن يتأدبوا به ولا يغفلوا عنه، فإذا انصرفوا عن تلاوة القرآن اعتبروا نفوسهم بالمحاسبة لها، فإن تبيينوا منه قبول ما ندبهم إليه مولاهم الكريم مما هو واجب عليهم من أداء فرائضه، واجتناب محارمه، فحمدوه في ذلك وشكروا الله على ما وفقهم له، وإن علموا أن النفوس مُعْرِضَةٌ عما ندبهم إليه مولاهم الكريم، قليلة الاكتراث به، استغفروا الله من تقصيرهم، وسألوه النقلة من هذا الحال الذي لا يحسن بأهل القرآن، ولا يرضاهم لهم مولاهم إلى حالة يرضاهم، فإنه لا يقطع من لجأ إليه، ومن كانت هذه حاله وجد منفعة تلاوة القرآن في جميع أموره، وعاد عليه من بركة القرآن كل ما يجب في الدنيا والآخرة إن شاء الله، عن قتادة رحمه الله تعالى قال: "لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، قضاء الله عز وجل الذي قضى بأنه: شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً" (أه بتصرف و باختصار من أخلاق حملة القرآن للإمام الأجرى رحمه الله تعالى .

وحضور القلب: ذكره العلماء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَنْحِتِيْ حُذِّ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]. ومعناه: أن يكون إقباله على كلام الله تعالى، مُنْصَرَفَ الهمة إليه، لا إلى غيره، يعني: أن يأخذ الكتاب بِجِدِّ.

قيل لبعضهم: هل تُحَدِّثُكَ نفسك بشيء إذا كنت تتلو كلام الله؟

قال: وأي شيء أحب إليّ من كلام الله تعالى حتى تُحَدِّثني نفسي به؟!

أيها المسكين: أي شيء أحب إليك من كلام الله حتى توسوس نفسك لك

به؟

وانظر إلينا اليوم!! كيف يُقبل المرء على كلام الله تعالى، فينتفي عنه الخشوع والتدبر والإقبال، وإذا به في سوقه ومشاكله، وولده، وماله، وعِراكه وشجاره وما كان، وما يمكن أن يكون حتى يخرج عن كلام الله تعالى، في صلاة أو في غير الصلاة، وإن كان عنده بقية من إيمان يقول: «إن شاء الله! في الصلاة التالية أكون أحسن!» وهذه الحالة لا خشوع فيها ولا تدبر ولا إقبال.

ومن ثم ينبغي أن يُقبل بقلبه على الله تعالى.

كان الرسول ﷺ يتلو كلام الله تعالى على الحال التي أشرنا، ثم كان يقف عند الآيات، ذكروا أنه قام بآية واحدة يرددها طوال ليلته ﷺ؛ وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].^(١)

طوال ليله ﷺ يقرأها، وقف عندها لا يتعدها! لما ورد على قلبه ﷺ من المعاني، ولما ورد على قلبه من التدبر والتفهم، يقف عند هذه الآية، وكان ذلك كذلك أيضا في كثير من سلف الأمة الصالحين وعباد الله المتقين؛ «ذكر ابن المبارك أخبرنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي الصّحاح عن مسروق قال: قال رجل من أهل مكة

(١) عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: «صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ، فَقَرَأَ بِآيَةِ حَتَّى أَصْبَحَ يَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ بِهَا: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَلَمَّا أَصْبَحَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا زِلْتُ تَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ تَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ بِهَا؟ قَالَ «إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ الشَّفَاعَةَ لِأُمَّتِي فَأَعْطَانِيهَا، وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا». أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٤٩/٥، طبعة الميمنية)، قال الشيخ شعيب في التحقيق: «إسناده حسن» اهـ.

٣٤٤٧ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مُحْسِرُونَ حُفَاةٌ عُرَاةٌ غُرَلَاءُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، فَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ يُؤْخَذُ بِرِجَالِهِ مِنْ أَصْحَابِي ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ، فَأَقُولُ أَصْحَابِي. فَيَقَالُ إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مِنْذُ فَارَقْتُهُمْ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [١١٨-١١٧]. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ ذَكَرَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَنْ قَبِيصَةَ قَالَ: هُمْ الْمُزْتَدُونَ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ، فَقَاتَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه. أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٣٤٤٧).

: هذا مقام تميم الداري رضي الله عنه؛ لقد رأيت ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يصبح يقرأ آية من كتاب الله ويركع ويسجد ويبكي: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» [الجاثية: ٢١] الآية كلها .

وقال بشير : بُتُّ عند الربيع بن خيثم ذات ليلة فقام يصلي فمرّ بهذه الآية فمكث ليله حتى أصبح لم يعدّها بيبكاء شديد .

وقال إبراهيم بن الأشعث : كثيراً ما رأيت الفضيل بن عياض يردّد من أوّل الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها ، ثم يقول : ليت شعري! من أي الفريقين أنت؟ وكانت هذه الآية تسمى مُبْكَاة العابدين^(١).

(١) انظر تفسير القرطبي، تفسير الآية رقم ٢١ من سورة الجاثية .

من معاني التدبر:

والتدبر له معانٍ أُخرى، وهو: التفهم، والتخصيص، وبعد ذلك التأثير،
ونُفِصِّلُ في هذه المعاني بعض الشيء:

المعنى الثاني والثالث للتدبر: التفهم، وتعظيم المتكلم عزَّ وجلَّ:

سُئِلَ عَلِيُّ عليه السلام: «هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ:
وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهَهَا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ، وَمَا فِي
هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: الْعَقْلُ، وَفَكَأكَ الْأَسِيرِ، وَأَنْ لَا يُقْتَلَ
مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ.»^(١)

والتفهم يعني أن يتفهم المرء من كل آية ما يليق بها، فالقرآن الكريم قد
احتوى على أسماء الله تعالى وصفاته، وأفعاله، وعلى ذُكْرِ الأنبياء وما حدث لهم،
وعلى ذُكْرِ المكذِبين وكيف أهلكتهم سبحانه وتعالى، وعلى ذُكْرِ الجنة، وعلى ذكر النار
في آياته.

فهذه الآيات التي وردت في القرآن الكريم حَظُّكَ من تدبرها، وتفهمها أنك
إذا تَلَوْتَ كلام الله أن تمر عليك الآية فتعلم منها ما أشار الله تعالى لك به، أو شيئاً مما
يريد الله تعالى أن يصل إليك، أو أن يَعْقِلَهُ ذهنك، أو أن يتدبره قلبك في هذه المعاني.

(١) أخرجه الإمام البخاري موقوفاً على علي عليه السلام (٣٠٤٧).

تُراها نزلت هذه الآيات - حتى لو لم تكن هذه الآيات إلا في القَصَصِ والوعظ والوعد والوعيد- تُراها نزلت للسمر؟ تُراها نزلت للتسلية؟ أو أن ذلك كله كما قال تعالى: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]، فأين أنت إذا من هذا المعنى المهم حال قراءتك؟

ولا يتمكن المرء من ذلك إلا أن يُقدِّم حالة من الأحوال المهمة العظيمة التي ينبغي أن يتحلَّى بها قلب المؤمن حال قراءة القرآن الكريم، وهي التي يسمِّيها العلماء «تعظيم المتكلم».

فإنَّ تالي القرآن لا بُدَّ حين يبدأ في تلاوة القرآن أن يَسْتَشْعِرَ عظمة المتكلم، وأن يَعْلَمَ الخطر في تلاوة القرآن، فكما يقول العلماء: أنه ليس كلُّ يدٍ تَصْلُحُ لِمَسِّ جلد القرآن الكريم كما ذكر الرب جل وعلا: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩]؛ المس فقط!! فليس كلُّ لسانٍ كذلك متأهلاً لتلاوته، وليس كل قلب مستعداً لمعانيه، بل ذلك كله متعلِّق بأن يكون هذا اللسان وهذا القلب على هذه الطهارة، والتوقير، والتعظيم لله - تبارك وتعالى - الذي به يكون القرآن سبباً في ما يتنزل عليه من المعاني، وسبباً في فتح الله له، وسبباً في نور الله له ﷻ.

فإذا لم يكن القلبُ على التوقير، والاحترام، والإعزاز، والإجلال لما يُقبَلُ عليه من كلام الله تبارك وتعالى، كذلك لا يُحْصَلُ به هذه الأنوار إذا لم يكن له مُعْظَمًا... مُوقِّراً... مُجَلِّلاً بقلبه... مُتَطَهِّراً من كلِّ رَجْسٍ، ومن كل خطيئة.

وإنما يَحُولُ هذا الرَّان - الذي علا على القلب - بين هذه الأنوار من كلام الله تعالى، وبين القلب؛ فإن القلب كالمراة، إذا عُلِّقَ على هذه المراة تلك الأوساخ والأدْرَانُ تتمنَعُ الرُّويَّةُ فيها، كذلك لا يصل نور القرآن إليه إلا بعد أن يُزِيلَ ذلك كَلَّهُ؛ لِتَظْهَرَ تلك الصُّورَ جَلِيَّةً في مرآة القلب، حتى يتميز له هذا النور، وهذا الحق، ويتميز له هذا الشفاء، وهذه البركة، إلى آخره.

فعندما تتلو كلام الله تعالى فإنما ينبغي عليك أن تستحضر عَظْمَةَ من يكلمك

جل وعلا، أو شيئاً من تلك العظمة، وأن تعلم أن الكلام الذي تتلوه ليس من كلام البشر، وإنما هو كلام الرب - جل وعلا - الذي يجب عليك أن تُعَظِّمَهُ التعظيم اللائق به، قال سبحانه وتعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣].

وكلمها زاد تعظيمك لربك ﷻ وإجلالك لكلامه، كان ذلك سبباً لبرّد اليقين على قلبك، وسببَ ورود النور عليه، وسبباً لإقبالك على الله تعالى، وسبباً لمحبة الله لك، وإنزاله رحمته عليك جل وعلا، واختصاصك من دون الخلق بأُنك المُعَظَّمُ له المُجَلُّ له؛ فإذا كان ذلك متحققاً فيك، إذا بالله تبارك وتعالى - كما أنك عَظَّمْتَهُ ووقَّرتَهُ وأقبلت عليه الإقبال اللائق به - إذا به يُنَزِّلُ عليك ما هو لائقٌ بأمثال هؤلاء المعظَّمين له، المُجَلِّين له ﷻ،

أن يُعَظِّمَهُ كما يعظمه أولوا الألباب؛ لعلهم يتفكرون كما قال المولى سبحانه وتعالى عنهم.

وأما عن كيفية تعظيمه: فقد رأينا سلف هذه الأمة وقدوتهم النبي ﷺ

وأصحابه ﷺ كيف كانوا يُعَظِّمُونَ كلام الله تعالى.

الفصل الثاني: وظائف المؤمنين في شهر شعبان حال المؤمنين في شعبان

وتعظيم كلام الله تعالى يأتي من تفكيرك في عظمة الخالق سبحانه وتعالى، فإذا ما نظرت إلى خلقه: العرش والكرسي والسموات والأرض والجبال والناس، وما في الظاهر والباطن والبحار والخلق، وغير ذلك عَلِمْتَ تلك العظمة، أو شيئاً من عظمة الله تعالى. فكل ذلك بيده، وكل ذلك تحت قدرته، وكل ذلك نافذ فيه أمره سبحانه وتعالى، لا تخرج ذرة من تلك الذرات من تحت حكمه سبحانه وتعالى، كل دابة آخذ بناصيتها، لا يُرْتَب في الخلق إلا هو سبحانه وتعالى، ولا يُجيبهم، ولا يزيدهم، ولا ينقصهم ولا يجمعهم إلا الله تبارك وتعالى.

وانظر إلى معنى مهم من معاني عظمته جل وعلا أن يقول: «هَوُلاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبالي، وَهَوُلاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبالي»^(١). وتأمل هذا الحديث القدسي الشريف: كُلُّ الخَلْقِ فِي قبضته ﷻ مُتَرَدِّدون بين رحمته وفضلِهِ، بين عدله ونقمة جل وعلا. إذا عَلِمْتَ أن هذا كلُّه فِي قبضته؛ وأنه مُتَرَدِّدٌ بين ذلك وذلك، وَعَلِمْتَ أنه ﷻ يفعل ما يشاء وكما قال: ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، اطَّلَعْتَ على شيء من عظمته، ويستشعر قلبك حينئذ تلك العظمة، أو شيئاً منها، فَتُعْظَمُ كلامه سبحانه وتعالى، ويرتفع في قلبك هذا التعظيم، وهذا التوقير، وهذا الإجلال لله تعالى، فيكون ذلك مُسَاعِداً لك على معاني التفهم التي أشرنا إليها.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤ / ١٦٨)، وابن حبان في صحيحه (٢ / ٥٠)، والحاكم في المستدرک (١ / ٨٥) وصححه ووافقه الذهبي .

أن تتفهم من كل آية ما فيها من أسماء الله تعالى وصفاته، وما فيها من حِكْمِهِ وأفعاله، وأحوال الأنبياء، وأحوال المكذبين، وأحوال الجنة والنَّارِ والبَعَثِ والشُّورِ..

وكل ذلك موجود في كلام الله تعالى، أين نصيبك وحظك من التفهم عنه سبحانه وتعالى؟

أين نصيبك وحظك من تدبره والإقبال عليه الذي أمرك به سبحانه وتعالى

!؟

فيه أسماؤه وصفاته، وهي البحر العميق الذي به عَلَّمَكَ اللهُ تعالى الإقبال عليه، أن تعرف منه أنه المَلِكُ؛ أن له مملكةً له فيها التصرف والتدبير، والأمر، والنهي، والإعطاء، والمنع، وأن تنظر في أنه الملك القدوس السلام المؤمن، وأن تعرف آثار هذه الأسماء، وتلك الصفات في خلقه، وأن الخلق كله إنما هو أثر من آثار تلك الأسماء، أو من بعض هذه الأسماء والصفات التي ذكرها الله تبارك وتعالى، فهو الخالق، فالخلق أثر من آثار هذه الصفة، وهو الرازق فالرزق أثر من آثار هذه الصفة، وهو الملك فتلك المملكة أثر من آثار اسمه الملك، وهو السلام، وهو المؤمن، وهو القوي، وهو الغني سبحانه وتعالى، وهو الغفار، وهو الوهاب، وهو البَرُّ، وهو الرحيم، كل ما في الكون آثار من آثار أسمائه وصفاته التي ينبغي أن تُوحَّدهُ بها، وأن تدعوه بها^(١)، وأن تُثنيَ عليه بها، وأن تتعلق به سبحانه وتعالى فيها؛ ليكون لك حظٌ

(١) قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

منها، ليكون لك إقبال عليه بها، فتقلب حالك إلى تلك الحال: حال المتعلقين بربهم ... الفاهمين عن ربهم ... الموحّدين لربهم ... المحبين لربهم ... المتقربين لربهم . أولئك الذين يرفع الله درجاتهم ويُعلي منزلتهم، ويأخذ بأيديهم، ويحفظهم، ويوفّقهم ويسددهم.

وكذلك: أن تتفهم من خَلْقِهِ وَفِعْلِهِ ما يليق بكل آية منها، ذكر أهل العلم في هذا السياق بالذات قوله سبحانه وتعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٣] ، ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٨] ، ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ [الواقعة: ٧١] .

ولهذه الآيات تلك المعاني التي ينبغي أن تتفهمها ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ [٦٣] وأنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨] الذي يكون سبب الولد وانتهت هذه المسألة عند هذا المعنى؟ لا؛ لأن هذا الفهم يشترك فيه المؤمن والكافر..

أما المؤمن الذي يتفهم عن الله تعالى، فإننا يبلغه من الآية شيء يكون سبباً لفهم عظمة الله تعالى وقدرته وقوته، وسبباً ليقربه إلى الله تعالى، وليكون قائداً له إلى معرفته ... إلى محبته ... إلى توحيده ... إلى معرفة شيء من عظمته سبحانه وتعالى. فهذا السائل الذي ذكر الله تبارك وتعالى - هذا الماء المهين الذي أشار إليه في قوله جل وعلا ﴿ ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ [السجدة: ٨] - انظر إليه وقد خرج إلى

أعصاب وعظام ، ثم خرج بعد ذلك إلى السمع والبصر والفؤاد، ثم خرج إلى هذا الإنسان السَّوي، ثم تركبت فيه الصفاتُ الشريفة والصفات الرديئة من الحقد والغُلِّ، والحسد، وحب الدنيا، والشهوات، كل ذلك في هذه الآية ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ ۞ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿

هذا الخلق الذي تراه بعد هذا الأمر هو الذي خلقه الله تعالى لِيُنَبِّئَكَ، وليرشدك، وليأخذ بيدك إلى معنى الخلق، والقُدرة، والإبداع، وإلى عظمة الخالق سبحانه؛ حتى تقول سبحان الله!

وأما أحوال الأنبياء، وما ينبغي أن تتفهم منه، فقد رأيت أحوال الأنبياء ، ودعوتهم وصبرهم، ومواصلتهم ومثابرتهم، وكيف كذبهم النَّاسُ. فلك في ذلك أن تتفهم أولاً كيف أن الله تعالى مُستغني عن الرُّسول والمرسل إليه، مُستغني عن الخلق جميعاً سبحانه وتعالى. وما أرسل الرُّسل لِيُعَذِّبُوا وَلِيُؤْذُوا وليقع لهم ما حدث، وإنما أرسلهم ليعتبر المعتبرون بعدهم بصبرهم وثباتهم على دعوتهم، وأن الله تعالى أيدهم ونصرهم في نهاية المطاف، مع ما بيّن سبحانه وتعالى من قوة تحمُّلهم وسعة صدرهم وطول دعوتهم وأمدهم؛ آمن بهم النَّاسُ أم لم يؤمنوا كما ذكر الله تبارك وتعالى عنهم، وكيف كانت دعوتهم إلى توحيده، وإلى نبذ عبادة غيره سبحانه وتعالى، وأنهم لم تَلِن لهم قناة، ولم تضعف لهم عزيمة، ولم يهن لهم قلبٌ - صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين - حتى لا قوا الله سبحانه وتعالى.

لك في ذلك التفهم الذي ينبغي أن يكون الدافع لك، والقوة المُحرِّكة لقلبك، والصبر الذي يحيط بدعوتك وعملك، والثبات والقوة، وقوة الإرادة. وقوة العزيمة، ومواصلة السير إلى الله تعالى، وفي نفس الوقت انتظار نصر الله جل وعلا.

وهذه أحوال المكذبين: تتفهم منها كذلك ما بيّن الله تعالى:

أَنَّ الْمَكذِبِينَ عَاقَبْتَهُمْ كعَاقِبَةِ مَا مَحدث لِقَوْمِ نُوحٍ، وَعَادٍ، وَثَمُودَ، وَقَوْمِ فِرْعَوْنَ. كُلُّ أُولَئِكَ لَمْ يُعْجِزُوا اللَّهَ تَعَالَى شَيْئًا. وَأَنَّهُمْ مَهَّمَا عَلَوُا وَاسْتَكْبَرُوا وَطَالَ أَمْدُهُمْ وَزَادَتْ قُوَّتُهُمْ وَارْتَفَعَتْ دَوْلَتُهُمْ، إِذَا مَا كَذَّبُوا رَبَّهُمْ وَخَالَفُوا رُسُلَهُمْ، وَإِذَا مَا بَغَوْا وَطَغَوْا وَظَلَمُوا فَإِنَّ نَهَايَتَهُمْ هِيَ النِّهَايَةُ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وإنما بيّن ذلك؛ ليكون صبرًا للمؤمنين، وشفاءً لقلوبهم، وانتظارًا للفرج ربهم بعد ثباتهم على دعوتهم، وانتظارهم لنصر ربهم، وعدم يأسهم وقنوطهم. وأنه مهما طال ظلام أيامهم وسواد ليلهم فلا بد أن ينشق ذلك الفجر من نصره الله تعالى لهم، وأن يُزيل - سبحانه وتعالى - دولة الكفر التي جثمت على دنيا المؤمنين اليوم.

وَذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالصَّرَاطِ، وَالْبَعْثِ، وَالْقَبْرِ، وَالهُولِ، وَالنَّشْرِ، كُلُّ ذَلِكَ تَفْهَمُ مِنْهُ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِعِبْرَتِكَ، وَسَبَبًا لِحَوْفِكَ، وَسَبَبًا لِإِقْبَالِكَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَسَبَبًا لِتَوْبَتِكَ، وَمَحَاسِبَةَ نَفْسِكَ فِي اللَّحْظَاتِ وَالْأَنْفَاسِ لِتَعَدُّ عَلَيْهَا مَا يَكُونُ سَبَبًا لِنَجَاتِكَ مِنَ النَّارِ، وَدُخُولِكَ الْجَنَّةِ، وَفَوْزِكَ بِقُرْبِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَرِضْوَانَهُ جَلَّ وَعَلَا. وَهَذِهِ الْمَعَانِي مَلِئَتْ بِهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَلَكِنْ يَمُرُّ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ الْيَوْمَ كَمَا

قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

هكذا تتفهم، وهذا رزقُ الله تعالى الذي يرزقه الموقِّقين من عباده، لا يَطَّلِع على هذه المعاني إلا مَنْ وفقهم ﷻ لها. وإنما يَطْمَع المرء في أن يوفِّقه ربُّه لفهم ما، أمَّا أن يُحِيط المرءُ بكل آية، أو بكل سورة، أو بكل معنى؛ فهذا ما لا يُدرکه أحدٌ، ولا يحيط به أحد إلا الله جل وعلا، أو ما أطلع عليه رسوله ﷺ. قال المولى تبارك تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

قد كان همُّك إذاً في هذه المعاني أن تتفهم هذه الآيات، وألا تَمُرَّ عليها مرورَ الغافلين، وأن تَسْتَبْصِرَ منها ما يكون سببَ فَهْمِكَ عن الله تعالى الذي يقودك لمحبه، والذي يدل على توفيقه إياك ﷻ، والذي يملك بعد ذلك على التقرب إليه بأنواع القُرب، وعلى محبة كلامه، وإدمانه، وعلى الإقبال عليه بالذِّكر والفكر ﷻ؛ حتى تنطلق من قيود المعاصي والشهوات التي أنتَ فيها.

وذلك التفهم هو ما ينبغي أن يكون عليه حال المؤمنين اليوم، أو حُزناً على ترك هذه الحال، أو تَفَكُّراً فيه ومجاهدة على إصلاح ذلك الحال..

المعنى الرابع: التخصيص:

هو أن تعلم أن كلام الله - جل وعلا - أنت المخصوص به وأنه يخاطبك أنت بهذا الكلام، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

[الأنبياء: ١٠٠]. يعني: هذا الكتاب فيه ذِكْرُكَ؛ أن تَنْظُرَ فيه فترى فيه ذِكْرَ نَفْسِكَ؛ أن تَرَى نَفْسَكَ فيه من المتقين، من العصاة، من الفجار. أن ترى نفسك فيه من المؤمنين، من المحسنين. أن ترى نفسك فيه من الصابرين، الصادقين. أن ترى نفسك فيه من الخاشعين، المخشّتين. أن ترى نفسك فيه من المقصّرين، الغافلين، أن ترى نفسك كذلك تنتظر رحمة الله تعالى، أو أنك تنتظر عذابه، أو أنك مُقْبِلٌ عليه، أو مبتعد عنه.

لذلك لما يقرأ المرء آيات الله تعالى لا بُدَّ أن يَعْلَمَ أنه المقصود بها، وأن الله تعالى مُقْبِلًا عليه، وأن الله تعالى يُكَلِّمُه هو وحدَه بهذه الآيات، ويأمره بهذه الأوامر، وينهاه عن هذه النواهي، ويَعِدُّه بهذه الوعود الجميلة، ويتوعده بهذه الوعود المهذّدة.

قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: من الآية ١١٩]، فَكُلُّ مَنْ بَلَغَهُ ذلك القرآن فكأنها كلمه الله تبارك وتعالى، لذلك يشكر المؤمنون الله تعالى على أن أنزل عليهم هذا الكتاب والحكمة ليأخذهم به، وليعلّمهم إياه، قال تعالى: ﴿ وَادْكُرُوا لِعِمَّتِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ [البقرة: من الآية ٢٣١].

فهذا الكتاب: ﴿ بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وهذا الكتاب: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

وهذا الكتاب كما قال: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ [النحل: من الآية ٨٩].

وهذا الكتاب: ﴿وَشَرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: من الآية ٨٩].

فإذا لم ير المرء فيه الهداية، والبشرى، والرحمة، والهدى، والموعظة فكأنه لم يخص نفسه بهذه الآيات، فلا تكثر آية إذا إلا وأنت تنظر بما كلمك الله وخاطبك، وبما أمرك، وعمًا هناك، وبما قص عليك، وبما أخرج لك من الموعظة، وبما ذكر لك ذكرك الذي ينبغي أن تأخذ منه ما يكون سببًا لنزول رحمة الله عليك.

فمثلا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣] فأنت مطالب بها.. وهي لك.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، أنت مطالب بها.. وهي لك.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ [الإسراء: ٣٥]، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، أنت مطالب بذلك كله، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، كل تلك الآيات أنت مخصص بها.

علم الصحابة أنهم هم المخصوصون بهذه الآيات، فتنافسوا فيها. لما قال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣] علموا أنهم هم المخصوصون بذلك المطالبون به، فسارعوا إلى هذه الأوامر ونفذوها.

واعلم: أن كلام الله تعالى إنما يحتوي على أوامر ونواهي وقصص. حتى هذا القصص أنت مأمور بالاعتبار به، وأنه متوجه إليك بالعظة والتذكر..

كَلْ ذَلِكَ أَنْتَ مُطَالِبٌ بِهِ، وَأَنْتَ غَافِلٌ عَنْهُ، وَأَنْتَ مُقَصِّرٌ فِيهِ، مَعَ أَنَّهُ مَادَةٌ حَيَاتِكَ، وَمَادَةٌ رَحْمَتِكَ، وَمَادَةٌ هِدَايَتِكَ. وفي نفس الوقت أنت مسئول عنه عند الله تعالى: أنت تتلو كلام الله جل وعلا ولا تنفذه.. كهذا العبد السيئ الذي أتاه كتاب ملكه أن يفعل كذا وكذا، وأن يهين كذا وكذا، وأن يرتب كذا وكذا، وكذا، فأخذ كتاب الملك؛ يقرأه ويتلوه ويُعَلِّقَهُ ... يقرأه ويتلوه ويغلقه ... ولم يفعل من ذلك شيئاً!

تراه أحق بالمَقْتِ، وتراه أحق بالغضب، وتراه أحق بالتنكيل والتعذيب، أم لا؟

ينبغي أن يعلم المؤمنون أنهم هم المخصوصون المطالبون بهذه الآيات. فما من آية فيها أمر، ونهي، وزجر، وتوحيد، ووعد، ووعيد وكل ذلك إلا وهي مُتَوَجِّهَةٌ إليك بالخطاب، إلا وهي تُخَصِّصُكَ بالقول، إلا والله تعالى يقول لك فيها ذلك، وينبئك بما فيها سبحانه وتعالى..

حتى ذلك القصص الذي ذكر الله -جل وعلا- قال فيه:

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [مرد: ١٢٠:٤١]، يُقَصُّ هذا القصص على النبي ﷺ؛ ليثبت به فؤاده..

أنت مخصص بذلك كذلك، بأن يكون ذلك القصص مثبتاً لفؤادك، رابطاً على قلبك، تنتظر به نصر ربك سبحانه وتعالى، ولك حظ فيه. وانظر إلى هذه الأوامر والنواهي والزواجر والوعود والوعيد في تلك الآيات التي تقرأها وأنت عنها غافل!

والتي يُحَدِّثُكَ فيها وأنت ملتفت عنه! والتي يأمرُك بها أو ينهاك عنها وأنت تتلوها وتغلقها!

تراك ماذا تنتظر إذا كان تخصيص ربك بكلامه لك، وأنت لا تُحَصِّصُ نفسك به ولا تستدعي بذلك شيئاً من نفسك؟

المعنى الخامس: التأثير:

ومما يجب أن يتَّصف به المرء حال قراءة القرآن أن يكون متأثراً بكل آية بما يليق بها من حال، سواءً كانت في الرجاء أم في الخوف أم في الحزن، لأن آيات القرآن لا بد أن يُنَزِّلُهَا المرء في كل حال على قلبه. فأيات التخويف والوعيد والآخرة والقيامة والأهوال لا بد أن تعتري القلب حالة من حالات الخوف بتلاوتها، وإذا كانت هذه الآيات تتكلم في الرجاء، والجنة، وفي العمل الصالح، ورضا الله تعالى ومسامحته وتجاوزه يَغْلِبُ على قلبه الرجاء.

وإذا كانت الآيات تُبَيِّنُ مقامات الصالحين، وأعمال أولئك المتقين، رأى المرء نفسه بعين التقصير والتفريط، فيغلب حال الحزن على قلبه.

وهكذا لا بد وأن تكون تلك الأحوال ملازمة للقلب، وإذا استمرت هذه الأحوال غلبت الخشية على قلب المرء؛ لمعرفة عن ربه، ولفهمه عنه كما قال: ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَلَّمُوا ﴾ [فاطر: ٢٨].

الفصل الثاني: وظائف المؤمنين في شهر شعبان

حال المؤمنين في شعبان

لذلك ينبغي أن تكون الخشية هي الملازمة لقلب المؤمن؛ لأن آيات التخويف كثيرة، وحتى آيات الرجاء أيضًا إذا أمنت النظر فيها وجدتها آيات مخيفة.

انظر إلى تلك الآيات التي ظاهرها الرجاء، وباطنها التخويف الشديد حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢]، فإذا استبشرت بأنه غفار وجدت أن الطريق إلى المغفرة والأسباب التي علّق الله تعالى عليها المغفرة من الصعوبة بمكان، فيغلب على قلبك الحزن خوفاً من ألا أن تتصف بها أو لا تقوم بتحقيقها، فيكون الخوف كذلك حتى في آيات الرجاء غالباً على قلب المرء؛ حتى ينشرح بعد ذلك برحمة الله، ويلين جلده وقلبه إلى ذكر الله - سبحانه وتعالى - كما هو حال المؤمنين الذي أشرنا إليه.

وهذا التأثير ينبغي أن نراه على أحوال المؤمنين. أمّا أن يتأثروا قليلاً بالموعظة، وهي الحالة التي نحن فيها، ثم يخرجوا لتنتهي تلك الحال، ويعود المؤمن إلى ضحكه وهواه، وإلى كلامه، وإلى غفلته، وإلى معافسته أهله وولده، وإلى انشغاله بديناه، وشغله، وماله فليس ذلك خوفاً محموداً. وإنما الخوف المحمود هو الخوف الملازم للقلب الذي يمنع المرء من الوقوع في المعصية، والذي يجمل المرء على الطاعة، ويسارع به إلى رضا الله تعالى، وألا يراه حيث نهاه، وألا يفتقده حيث أمره، وأن يكون متوجساً ليومه وغده، مُتَرَقِّباً لرحيله، وسرعة الانتقال إلى الله تعالى.

هذا الحال الذي ينبغي أن يكون حال المؤمنين اليوم، فإذا ما قرأ تلك الآيات

التي ظاهرها الرجاء، وباطنها التخويف خاف حتى كاد أن يَنَمَحِقَ من الخوف، وإذا قرأ آيات الجنة استبشر وطار بها فرحاً، وإذا قرأ الآيات المتعلقة بربه وأسمائه وصفاته

سبحانه وتعالى إذا به يحني الله تعالى جبهته خشوعاً .. وإجلالا .. وتعظيماً .. وإقبالا .. وتعلقاً .. ورجاءً في الله تعالى .. وثقةً فيه .. وتوكلاً عليه سبحانه وتعالى، فكلما مرّت عليه آية تغير حاله بما يناسبها.

أمّا حال الغفلة التي نحن فيها فلا يُرجى من وراءها شيء، لذلك قيل في هذه المعاني: لا بد أن يتحقق بها أو ينوي ذلك وإلا كان حاكياً فقط تلك المعاني. يعني: لا بد أن يُشربها قلبه، وأن تظهر على حاله، وتصرفاته، وأخلاقه وإلا لم يكن قارئاً للقرآن الكريم، وإنما يحكي هذه الأقوال التي يسمعهها، فإذا قرأ قوله سبحانه وتعالى في مثل هذه الحال: ﴿رُئِنَّا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]. لا بد أن يغلب على قلبه حال "التوكل والإنابة والفهم" عن الله تعالى. وإذا قرأ ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥]. فلا بد أن يغلب على قلبه الحال المتعلق بهذه الآية الكريمة من خوف العصيان وعظم العذاب، وسرعة الإقلاع عن الذنب والندم عليه والخوف من عاقبته، أو أن ينوي ذلك. وإلا كان حاكياً مردداً بلا فهم، وخارجاً عن تدبر الآيات الذي أمر الله تعالى به في قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وكذلك إذا ما قرأ قوله تعالى: ﴿وَلَتَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَاءٍ وَذِيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

فلا بد أن يتصف بهذا المعنى، أو أن ينوي أن يتصف به، أمّا أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ويخرج إلى المعصية والغفلة، ويخرج إلى البعد عن الله تبارك وتعالى! فهذا ليس حال المؤمنين.

ترارك تقرأ القرآن متأثراً به، فاهمًا عن الله تعالى، قد تَوَجَّه الخطاب إليك، أم أن هذا الخطاب مُتَوَجَّهٌ إلى غيرك؟

وهذه حال العبيد العصاة الذين ذكرنا: أنه قد جاءهم كتاب الملك فأخذوا الكتاب، وفيه أن يفعلوا كذا وكذا، وأن يتصفوا بكذا وكذا، وأن يحققوا كذا وكذا، وأن يقوموا بكذا وكذا، وهم يقرؤون الكتاب ويغلقونه وينامون، ثم يصبحون فيقرؤون الكتاب، ويغلقونه مرة أخرى!

لذلك: لا يكون تاليًا، بل يكون مرددًا .. حاكياً، بعيدًا عن حاله، بعيدًا عن قلبه، بعيدًا عما يطلبه منه ربه، بعيدًا عن تدبره ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

فلا ينزل القرآن على قلبهم نزول الموعظة والشفاء، وهذه هي الحالة السيئة التي لا بد أن يعالجها المرء هذه الأيام، لتكون طريقه ليحقق في شهر "رمضان" - شهر القرآن - هذه المغفرة التي فتحها الله تعالى له، والرحمة التي ينزلها على عباده الصالحين.

فلا بد حينئذ أن تتغير تلك الأحوال التي نحن فيها؛ حتى يُعَيِّرَ الله تعالى ما نحن فيه من أحوال البُعد والجفاء والحُرمان التي أصابتنا بسبب بُعْدِنَا عن القرآن، وبسبب عدم التدبر له والإقبال عليه، ولا بد أن يعطيه المرء قلبه، وذهنه وعقله وحضوره ليكون سبباً لرحمته.

انظر كم فَرَطْنَا في هذه المعاني! لا بد إذن أن يكون ذلك هَمَّ المرء اليوم وغداً حتى تصلح به أحواله، ويُقْبَلَ به على ربه، ويُشْفَى من أمراضه وعمله؛ ليكون بذلك أهلاً لقرْبه من الله تعالى.

وقد كان السلف الصالحون كما أمرهم النبي ﷺ يُقبلون على هذا الكتاب،

فقد أمر النبي ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يختم القرآن في سبع، وهي الحال الوسط التي ينبغي ألا ينزل عنها المرء إلا لحالات أخرى تعتريه.

فما الذي يجعلك ويحمِّلك على أن تُقرِّط في القرآن؟

لو استفدت من وقتك الضائع الذي تُضيِّعه في الأكل والشرب والكلام، والاستئناس بخَلْقِ الله تعالى وغير ذلك، لو استغللت هذا الوقت، أو لو اهتممت بأن يكون هذا الوقت لكلام الله تعالى لتغيرت تلك الحال، ولنزلت تلك البركة في وقتك الذي تشكو من قلته، وأنت لا تجد وقتاً للقراءة، ولا للذكر، ولا للصلاة، وأنت لا تجد وقتاً لتحقيق به أعمال معاشك، ولا جلوسك مع أهلِكَ، ولا غير ذلك... كل هذه الأحوال إنما صلاحها في ذلك.

ابدأ .. وجرب مع نفسك لا مع الله ﷻ - إذ لا تجربة معه ﷻ - فكلامه صادق لا خُلفَ له.

انكَبَّ على كلام الله تعالى، وأقبل عليه، وتأدَّب بأدبه، وانظر البركة التي ستحلُّ عليك، وعلى بيتك وأهلك وولدك، ومحلُّ على صحتك ومالك ونفسك، وعلى أخلاقك وعملك وعبادتك، وكيف يصلح قلبك، ويزداد خشوعك وتتحسن

أحوالك، وإذا بك متأثراً خاشعاً، إذا بك مقبلاً متوكلاً حسن الهيئة، قد نور الله تعالى وجهك بما نور به قلبك، إلى آخر المعاني التي قد سمعنا عنها في السلف الصالحين، والتي مازال طريقها مفتوحاً للمؤمنين اليوم.

أمره أن يحتم القرآن في كل سبع: فكان الصحابة يحزبون كتاب الله تعالى على الأسبوع؛ ليختموا هذه الختمات، فمنهم من يزيد إلى ختمتين في الأسبوع، ومنهم من يقل عن ذلك لأسباب: منها نشر العلم، أو طول التدبر في آيات الله لاستخراج تلك المعاني والأحكام، أو الإقبال عليها. فمنهم من كان يقرأ الآية الواحدة ليُله كَلَّهُ يُرَدِّدُهَا: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَرُوا أَلْسِنَاتٍ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ ﴾ [الجنابة: ٢١] ، إلى آخر ما ورد عن النبي ﷺ، وعن كثير من أصحابه ﷺ، والسلف الصالحين أنهم كانوا يقفون عند الآية الواحدة طوال ليلهم يقرأونها كما سبق وأن أشرنا.

وهكذا لا ينبغي لك أن تكون من الزاهدين في كلامه، الزاهدين في كتابه
جلّ وعلا.

القرآن الكريم بين المحبة والإصلاح، وبين الهجر وموانع الانتفاع به .

إنَّ أهمَّ ما يُصلِح المرءَ والذي يجب أن يُقبل عليه أشدَّ الإقبال هو القرآن الكريم؛ فإذا أحب القرآن وأقبل عليه وأدمن قراءته، وحاول أن يتدبَّر معانيه، يوشك ذلك أن يكون سبباً لأنَّ ينتقل من هذه الحالة السيئة التي هو فيها.

وإنَّ أَدَلَّ الأدلة على محبة الله والإقبال عليه هو محبة القرآن الكريم، والإقبال عليه، وعدم الملل منه، بل أن يكون زاده، وأن يكون فكره، وتدبره، وتأمله، وإقباله، وجلوسه، ونومه، وحركته، وسكونه، وأن يكون القرآن قائده في ذلك كله، فإذا بالمرء حينئذٍ محبٌ لربه، مقبلٌ عليه، ويقدر ما يجب المرءُ ربه ﷺ بقدر ما يحبُّه ربه، فإذا أراد المرء أن يعرف منزلته عند الله، فليعرف منزلة الله تعالى عنده.

فهذه المنزلة إذن ينبغي أن تظهر في القرآن الكريم، لذلك وجدنا الصحابة رضوان الله تعالى عليهم - بعد النبي ﷺ تعلُّماً منه صلوات الله وسلامه عليه - لا يُزيلهم شيءٌ عن القرآن قياماً وتلاوةً وذكرًا وتعلُّماً وتعليماً وفهماً كما أمرهم بذلك النبي ﷺ، فكان القرآن الكريم بركتهم، وهدايتهم، ونورهم، ورحمتهم، وشفائهم، واستخرج كافة ما كان فيهم من علك، انتقلوا به من الجاهلية إلى الإسلام؛ فإذا بهم بهذا القرآن الكريم قد تطهروا من ذلك كله.

وحتى يتحقق للمرء فتحُ الله في القرآن الكريم بأن يكون القرآن سبب كل سُورِهِ ونعيمِهِ في الدنيا والآخرة فلا بد من أن يتحقق فيه أمران:

- محبة القرآن الكريم.
 - تعظيم القرآن الكريم.
- وقد ذكرناهما، وأن يُخرَجَ عن أمرين:
- هجر القرآن.
 - موانع الانتفاع بالقرآن الكريم، والتي نسميها: موانع الوصول إلى أنوار وبركات وشفاء القرآن.

ونتكلم الآن عن الأمور التي ينبغي على المرء أن يخرج منها، وأن ينتهي عنها ويجانبها؛ لأنَّ النفس بدهاءةً لن تُقبل على القرآن وتُحبه وتُعظمه وتُقدِّره حتى تُقدِّره، حتى تُنخلع عن هذا الهجر، عن هذا التقصير في حقه.

أولاً: هجر القرآن:

قد ذكرنا إنَّ هجر القرآن الكريم وعدم الانتفاع به ممَّا شكاهُ النبي ﷺ إلى ربِّه؛ أنَّ قومه هجروا هذا القرآن، فقال الله تعالى حاكياً عن رسوله: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

وهجر القرآن خمسة أنواع:

أولاً: هجر سماعه، والإيمان به، والإصغاء إليه.

ثانياً: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

ثالثاً: هجر تحكيمه، والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه.

رابعاً: هجر تدبيره وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به.

خامساً: هجر الاستشفاء به والتداوي به من جميع أمراض القلوب^(١).

لذلك وجدنا الصحابة رضي الله عنهم خرجوا عن هذا الهجر كله؛ فإذا بهم يُقبلون عليه

سماعاً وتعلماً وعملاً وتحاكماً وتفهماً واستشفاءً وتداوياً، حتى رأينا النبي ﷺ -كذلك-

يجب أن يسمع القرآن من غيره، ويتأثر به، يقول لابن مسعود رضي الله عنه: «كما في الصحيحين:

«اقرأ على». قلتُ: اقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «فإني أحبُّ أن أسمعهُ مِن»

(١) انظر كلام شيخ الإسلام ابن القيم في "الفوائد" ص ٨٢.

عَيْرِي». فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قَالَ: «أَمْسِكْ». فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ!). وفي رواية: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ عَيْرِي»^(١).

فهذا الأمر؛ وهو هجر السماع، وهجر العمل، وهجر التدبر والفهم، وهجر التحاكم والتحكيم، وهجر الاستشفاء به؛ كل ذلك ينبغي أن يخرج منه المرء اليوم، ليكون ذلك مدعاةً لأن يكون المرء مُقبلاً على القرآن، فالإنسان ما أن يترك الهجرَ ويقبل على كلام الله ﷺ إلا كان غذائه، وشفائه، ورؤوحه، ويضيء طريقه إلى الله.

وأصحابُ القرآن كما يقول فيهم الرسول ﷺ: «أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ»^(٢)، وهؤلاء هم المتميزون^(٣) الذي ينبغي أن يكون كل واحد منا على حالهم ليُدخل في زُمرَةِ أَهْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَخَاصَّتِهِ. فينبغي حينئذٍ أن يكون المرء مسارعاً إلى ذلك لا متكاسلاً عنه.

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨٢) والفظ له، ومسلم بنحوه (٨٠٠) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣ / ١٢٧)، وابن ماجه (٢١٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ، قال الحافظ المنذري في الترغيب (ح: ٢٢٠٩) عن إسناده ابن ماجه: إسناده صحيح.

(٣) قول النبي ﷺ: «(إن الله تعالى أهلين من الناس) قالوا ومن هم يا رسول الله قال (أهل القرآن) وأكد ذلك وزاده إيضاحاً وتقريراً في النفوس بقوله (هم أهل الله وخاصته) أي الذين يختصون بخدمته، أي حفظة القرآن العاملون به هم أولياء الله المختصون به اختصاص أهل الإنسان به، سُئِمُوا بِذَلِكَ تَعْظِيماً لَهُمْ؛ كما يُقال: بيت الله.» انتهى بتصرف من فيض القدير، شرح الحديثين، (٢٣٧٤، ٢٧٦٧).

ثانياً: موانع الوصول إلى أنوار وبركات وشفاء القرآن

ومما ينبغي أن يكون عليه تالي القرآن الكريم وهو يقرأ كلام الله تعالى ليكون سبب سعادته وتدبره وفهمه، وسبب زيادة بركته وشفائه - أن يتخلَّى عن موانع الفهم، يعني: أن يتخلَّى المرء عن الموانع التي تمنعه من أن يصل كلام الله تعالى إليه، سواء كانت هذه الموانع في الإصرار على المعصية، أو الابتلاء بالكبر، أو بالعُجب، أو بالهوى المُطاع. فكل هذه الآفات من آفات النفس - وأخصَّها هذه التي ذكرنا - تمنع القلب من أن يعي عن الله تعالى، وأن يفهم عنه، وتمنع القلب كذلك التدبّر والتفهم والحضور والخشوع، وكذلك تمنع القلب أن يُخصَّص نفسه بهذه المعاني التي ذكرها الله تعالى، وأمرهم بها ونهاهم عنها وذكَّروهم ووعدهم وأوعدهم بها. وتمنعه أيضاً من أن تصل إليه بركات القرآن، وأن يصل إليه شفاؤه وهدايته، وأن تصل إليه رحمته، وأن يصل إليه نوره الذي ذكر الله تعالى:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

فهذا النور الذي إن أخذ المرء بحظه منه ظهر هذا النور في كلامه وسمعه وبصره وقلبه ويده كما دعا النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٦٧٣) من حديث ابن عباس ؓ.

كل هذا النور إنما هو من كلام الله ﷻ كما قال: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤]. هذا النور الذي افتقده الناس اليوم إنما افتقدوه لتلك الآفات التي ذكرنا.

ونُفَصِّل فيما سبق بعض الشيء:

المانع الأول من موانع الفهم: وهو أن المرء يحاول أن يكون هُمُّه الأكبر والوحيد من تلاوة كلام الله أن يُجْرَج الحروف من مخارجها، وأن يقرأها على النحو الصحيح، ويقضي عمره في أن يحرك لسانه بالقرآن الكريم.

نعم. ذلك صحيح ومطلوب أن يتلو المرء تلاوةً صحيحةً، ولكن أن يكون هُمُّه الأكبر والوحيد هي التلاوة والمخارج، وأن يخرج هذا من هذا، وهذا من هذا؛ فهذا من تليس الشيطان حتى يُضَيِّع عليه الفهم والاتعاظ والتدبر، وأن يُضَيِّع عليه كذلك حضور القلب معه، وهو من أعظم تَلَيِّساتِ الشيطان على المؤمنين الذين صاروا في هذا الطريق.

المانع الثاني من موانع الفهم: وهو أن يكون المرء مُتَّصِفًا بمعصية، أو موصوفًا بكبر، أو مبتلى بهوى مطاع في الدنيا، وهي المصائب والحُجُب التي يحجبها الشيطان على قلب المرء؛ حتى يمنعه تلك الهداية وتلك الرحمة، ويمنع أنوار الله تعالى أن تصل إلى قلبه، حتى يمنعه عنه أنوار الإيمان والأنس بالله تعالى، والشوق إليه، والتدبر في آياته، ومحبه ﷻ عن القلب بأن يحجبه بتلك المعاصي، أو الكبر، أو الهوى المتبع المطاع في الدنيا، فكلما أكثر المرء من المعاصي كلما نُكِبَتِ النُكْتُ السوداء في قلبه

حتى تعلق قلبه، وهو الرآن الذي قال عنه المولى: ﴿كَلَّا بَلَّ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] (١).

فلا يطمع العبدُ الحريصُ على الشهوات، الواقِعُ في المعاصي، المُسَوِّدُ قلبه بتلك الخطايا والذنوب أن يكون أهلاً لكلام الله تعالى، أو أهلاً لمعاني هذا القرآن الكريم، أو أن يتنزل هذا القرآن على قلبه نوراً ورحمة وهدايةً وشفاءً، لا يطمع في ذلك خاصّةً مع الحرص في الدنيا، وأتباع الهوى، أو خاصّةً مع الكبر؛ بأن يرى نفسه أنه يفهم، وأنه عنده كذا وكذا... وأنه به... وأنه يستطيع... وأنه...، ويرى نفسه فوق الناس، والناس دونه وذلك لأن الله ابتلاه فأنعم عليه بأمرٍ من أمور الدنيا؛ من مالٍ، أو جاهٍ، أو منصب، أو سلطانٍ، أو علم، أو عقل، أو قوّة، أو جسدٍ، أو غير ذلك من أسباب الكبر التي تُريه نفسه، وأنه شيء، وأنه يفعل ويفعل، وكيف يتكلم معه الآخرون بهذه الطريقة. كلُّ هذا المعاني من معاني الكبر.

هؤلاء المتكبرون قال الله تعالى فيهم: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]. فكلما اتّصف المرءُ بالكبر كان ذلك سبباً لطبع قلبه؛ فلا يفقه

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِبَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سَقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ؛ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ ﴿كَلَّا بَلَّ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾». أخرجه الترمذي (٣٣٣٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

عن ربه شيئاً، وإنما يبقى هكذا مُعَرَّضًا لسخطه وعذابه. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكَبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ. فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ» (١).

وعلى العكس؛ قال تعالى: «أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ» [المائدة: ٥٤].
فلا يكون العبد المؤمن إلا كذلك؛ فلا يكون المؤمن إلا متواضعًا منكسرًا ذليلاً لله تعالى، وكذلك منكسرًا للمؤمنين.

ففي كل الأوقات ينبغي أن يتحلى المرء بالإخبات، والخشوع، والتواضع، والانكسار، والتذلل لله تعالى، والتضرع، والارتقاء على بابه جل وعلا، ويُظهِر لربه الفقر، والفاقة، والحاجة، وأنه بغير ربه يَهْلِكُ، وأنه بغير ربه لا قيمة له، ولا وزن له في الدنيا ولا في الآخرة، وأن الله تعالى لو حَرَمَهُ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِهِ ما كان شيئاً؛ فلو حرمه مثلاً البصر، أو السمع، أو الكلام، أو المشي، أو العقل ما كان شيئاً، إلا أن يبكي إلى ربه، وأن يتضرع إليه.

والعبودية الحق: أن يَدْخُلَ على ربه فقيرًا مَحْضًا لا يملك شيئاً، ولا يرى نفسه شيئاً، ولا مقامًا، ولا حالاً، كلما دخل المؤمنُ على ربه دخلَ عبدًا فقيرًا يَشْهَدُ ضرورته إلى ربه؛ يعني أن كل ذرة من ذراته محتاجةٌ وفي فقرٍ إلى الله تعالى، فإذا أوقفَ اللهُ جَلَّ وعلا ذرةً من ذرات ذلك العبد المسكين مَنْ الذي يَحْرُكُهَا؟ لا يستطيع أحد؛

(١) أخرجه الإمام مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما مرفوعًا، والشرط الثاني من الحديث حديث قدسي، قال الإمام النووي في شرح الحديث المذكور: «قوله ﷺ: (الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكَبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ) هَكَذَا هُوَ فِي جَمِيعِ النُّسخِ، فَالْصَّمِيرُ فِي: (إِزَارُهُ وَرِدَاؤُهُ) يَعُودُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِإِلْعَامِ بِهِ، وَفِيهِ مَحْدُوفٌ تَقْدِيرُهُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَمَنْ يُنَازِعُنِي ذَلِكَ أُعَذِّبُهُ». وَمَعْنَى (يُنَازِعُنِي) يَتَخَلَّقُ بِذَلِكَ، فَيَصِيرُ فِي مَعْنَى الْمُشَارِكِ، وَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ فِي الْكِبْرِ مُصْرَّحٌ بِتَحْرِيمِهِ».

فعلم المؤمن عندئذ أنه من أوله إلى آخره... في ظاهره وفي باطنه فقيرٌ إلى الله، محتاجٌ إليه، متضرِّعٌ له، وأنه لولا ربه ﷻ ما اهتدى، ولا كان، ولا يمكن أن يكون.

وأما الهوى المتَّبِع في الدنيا فكثيرٌ من المؤمنين اليوم إلا من رحم ربي مَنْ يَتَّبِع الهوى في تصرفاته، وأقواله، وأخلاقه، ومعاملاته، وسلوكه، فما كان على مزاجه وهواه وأحبه كان صديقًا له، مُقبِلًا عليه، فإن أغضبه شيءٌ، إذا به يخرج عن حدود الشرع، ليكون مُتَّبِعًا للهوى، مائلًا إليه، لا يُطبِّق الشرع على رضائه وغضبه، وعلى ما يحب ويكره، وعلى ما يقوم ويقعد!

لا؛ المؤمن الحق غير ذلك كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٦].

فإن ابتلى المرء بشيء من تلك الموانع فهِيَهَا تَنْقَع في قلبه معاني آيات الله تعالى، وهيهات أن تهل عليه أنوار تلك الرحمات والبركات من الله تبارك وتعالى مع قلب قد صدأ من قلة الذكر، وقد امتلأ من كثرة الخطايا، وقد ائْتَلَى بالهوى، وقد طُبِع عليه بالكِبَر.

ينبغي إذن أن يتحسَّر المرء على مرور هذه الأيام بدون فائدة، فيمر الأسبوع في إثر الأسبوع، ولا يأخذ المرء نفسه بالحزم حتى يمرَّ أسبوعه، وإذا حاسب المرء نفسه فيه لم يجد نفسه قد حَصَلَ شيئًا: لا كلام الله تعالى قد ختمه كما يُخْتَم الصالحون، ولا في الإقبال عليه، ولا في التدبر، ولا أن يترقَّى به إلى الله تعالى، ولا أن تتحسَّن به أخلاقه ومعاملاته، ولا أن تزيد به طاعته وقُرْبَاتُه، ولا أن تتخفَّف به أثقاله وأوزاره، ولا أن يَسْتَشْفِيَ به من علله وأمراضه وأوجاعه.

لذلك: كان تقصير المؤمنين في هذا المعنى من أسوء التقصير، أن يصف الله تعالى لهم الدواء، وأن يُبَيِّن لهم طريق الشفاء، وأن يُنَزِّل عليهم نوره ورحمته، فإذا بهم يتعدون عنها، وإذا بهم يزهدون فيها، وإذا بهم يتقللون منها، وإذا بهم لا يأخذونها بالقوة التي أمر الله تعالى أن يأخذوا بها كتابه سبحانه وتعالى، يرون أسباب نجاتهم ورحمتهم وشفائهم وائتلافهم، وأسباب قُرْبهم من ربهم جل وعلا، وإذا بهم مُعْرِضون عنها، غير مقبلين عليها، زاهدون فيها! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كيف يسعد المؤمنون بكلام الله تعالى ويتنعمون بالإقبال عليه وتلاوته؟

فهؤلاء الْمُتَخَبِّطُونَ الْمُتَحَيِّرُونَ قد بَيَّنَّ الله لهم طريقهم في سلوك هذا الكتاب الكريم، وأحيا قلوبهم حتى تستطيع أن تُقْبِلِ على كلام الله تعالى بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

سَمَّاهُ الْمَوْلَى سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى رُوحًا؛ لتوقف الحياة الحقيقية عليه؛ لأن المرء بغيره يكون ضعيفًا، أو ميتًا كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مِّثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

هذا حالهم مع القرآن كما أشرنا هو التَّصَدُّعُ والخشوع والتواضع، وتشقق البدن والقلب عند سماع هذه المواعظ، وتلك الزَّوْاجِرُ، وتلك الآيات من الوعد والوعيد، وأوامر الله تعالى ونواهيه، وقصص الأنبياء وحكاية المكذبين معهم، وكذلك البُكَاء عند تلاوة هذه الآيات، ومن ثَمَّ كان المؤمن الحافظ لكلام الله تعالى، الحامل لكتابه جل وعلا لا بد وأن يكون متميزًا عن المؤمنين الذين لا يتميزون بذلك؛

فَيُعْرِفُ بَلِيلَهُ إِذَا النَّاسُ نَائِمُونَ، وَبِنَهَارِهِ إِذَا النَّاسُ مُفْطِرُونَ، وَبِئِكَائِهِ إِذَا النَّاسُ يَضْحَكُونَ، وَبِصَمْتِهِ إِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ، وَبِخُشُوعِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْتَالُونَ، فَهُوَ حَامِلُ لُؤَاءِ الْإِسْلَامِ، فَلَا يَلْهُوهُ مَعَ مَنْ يَلْهَوُ، وَلَا يَلْغُوهُ مَعَ مَنْ يَلْغُو، وَلَا يَسْهَوُ مَعَ مَنْ يَسْهَوُ، وَإِنَّمَا لَهُ حَالٌ أُخْرَى مَعَ اللَّهِ تَعَالَى أَمَلَتْهَا هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي ذَكَرْنَا.

التحذير من التسويف في الأعمال الصالحات :

ما الذي ينتظره النَّاسُ وقد مضتْ أعمارُهُم وَفَنِي شبابُهُم، وأوشكوا أن يرتحلوا. وإذا لم يرتحلوا اليوم فَهَمَّ راحلون رَغَمًا عنهم غَدًا أو بعد غد. وإنَّ غدا لناظره قريب. ماذا ينتظرون وكل يوم يقول غَدًا سأفعل، وبعد غدٍ سأفعل؟ مَنْ الذي ضَمِنَ له الغدُ أو بعد غدٍ والله تعالى يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]؟

ما أوتي القلبُ وَضَعْفَ وزادت غفلته إلا بسبب قول المرء: «بعد أن أنتهي من كذا سأفعل، وبعد أن أرتب كذا سأفعل، وبعد أن ينقضي السفر الفلاني سأفعل، والشغل الفلاني سأفعل، والزواج الفلاني سأفعل...». وكل ذلك من طول الأمل، ووسوسة الشيطان، وإضعاف القلب، وما فعل أحد شيئًا عندما يكون حاله هذا الحال. وهي حالة المؤمنين اليوم.

وإنما المؤمن يأخذ جذره ويبادر أجله، ويسارع إلى تنفيذ مرضاة ربه سبحانه وتعالى؛ لأنه يعلم أنه يوشك أن يؤخذ اليوم أو غَدًا، وأن يومه يمكن أن يكون آخر

الأيام، أو ليلته تكون آخر الليالي، وأنه يُرْحَلُ به وإن لم يَرَحُل. في كل لحظة يموت شاب.. أو يموت طفل، وهو ينظر ولا يتأثر ولا يتحرك له ساكن!!^(١)

(١) للمزيد من التفصيل حول هذا المعنى المهم؛ (المبادرة إلى الخيرات) راجع السلسلة الصوتية للمؤلف، وهي تحت نفس العنوان.

الوظيفة السابعة: التهجد وطول القيام



- قيام الليل في شعبان استعدادا لرمضان.
- من فوائد قيام الليل:
 - من أحسن القربات إلى الله تعالى.
 - مشاركة الصالحين من قبلنا في دأبهم.
 - مطردة للداء عن البدن.
 - مكفرة للسيئات.
 - يخفف قيام يوم مقداره خمسين ألف سنة.
- الترهيب من ترك قيام الليل: " لا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ
كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ "

• قيام الليل في شعبان استعداداً للقيام في رمضان

وهذا العمل الجديد الذي ينبغي أن يقوم به المرء في "شعبان" تحسباً لـ "رمضان"، واستعداداً لقوله ﷺ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١).

كل تاجر من وراء تجارته ، وتجارة القرآن هي التجارة التي لا تبور كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴾ ﴿١٥٦﴾ لِيُؤْتِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٥٧﴾ [فاطر: ٢٩:٣٠].

وهذه التجارة من القرآن الكريم تظهر في قوله ﷺ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا ..»^(٢).

يعني: من قام بهذا القرآن الذي هو من وراء تجارة كل تاجر، من قام به إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه، وإذا لم يُعوّد المرء نفسه في هذه الأيام على هذا القيام الطويل الذي يرجو به المغفرة، ويرجو به الرحمة، ويرجو به العتق من النار، فإن "رمضان" يأتي عليه، ويمر حتى إذا تعوّد على طول القيام وجد "رمضان" قد انتهى. ولماذا طول القيام؟ لأن النبي ﷺ قال: «أَفْضَلُ الصَّلَاةِ طُولُ الْقُنُوتِ»^(٣) ،

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٣) أخرجه مسلم (٧٥٦) من حديث جابر ؓ.

وطول القنوت يعني أن يطيل المصلي من قيامه، وقال ﷺ: «وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١).

وهذا الأحاديث نُبِّهَ بها أنفسنا وإخواننا المتكاسلين عن القيام لربهم والتلذذ بالإقبال عليه ﷺ، والمحبة لكلامه والتدبر فيه، وتَنَعَّمِ القلب والبدن بهذه الصلاة، وبذلك الإقبال على الله تعالى.

• من فوائد قيام الليل:

ونذكر شيئاً قليلاً من فوائد وعواقب قيام الليل حتى يكون ذلك سبباً معيناً لنا على قيام الليل لله سبحانه وتعالى:

الفائدة الأولى: قيام الليل من أحسن القربات إلى الله تعالى

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْعَبْدِ جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ»^(٢).
 فإذا علم المرءُ المحبُّ المُقبِلُ على الله تعالى أن ربه أقرب ما يكون إليه في جوف الليل،
 لا شك أنه ينتظر تلك الساعة، ويقوم فيها لِقُرْبِ ربه منه.

لذلك قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَشْتَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ. فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ

(١) أخرجه النسائي (٣٩٣٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ. قال الحافظ في الفتح (١١/٣٤٠): أخرجه النسائي وغيره بسند صحيح. اهـ.

(٢) أخرجه النسائي (٥٧٢)، والترمذي (٣٥٧٩) وقال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وابن خزيمة في صحيحه (١١٤٧) كلهم من حديث عمرو بن عبسة ﷺ.

تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ مَا أَعْرِفُكَ . فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتِكَ فِي الْهُوَاجِرِ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنْ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ. فَيُعْطِي الْمَلِكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يَقُومُ لَهَا أَهْلُ الدُّنْيَا، فَيَقُولَانِ: بِمِ كَسِينَا هَذِهِ؟! فَيَقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ . ثُمَّ يُقَالُ: لَهُ أَقْرَأُ وَأَضْعَدُ فِي دَرَجَةِ الْجَنَّةِ وَعُرْفُهَا. فَهُوَ فِي صُعودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هَذَا كَانَ أَوْ تَرْتِيلاً». هذا حديث صحيح^(١). «أسهرت ليلك» يعني: حال أن يتلوه ويدعو به ربّه وَيَتَمَلَّقه به جل وعلا.

وقد ذكرنا أن أفضل قراءة القرآن أن يقرأه قائماً يصلي في المسجد، كما ذكر الله جل وعلا: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِيلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿١٩١﴾ [آل عمران: ١٩١].

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه مرفوعاً (٣٤٨/٥)، وغيره. قال الشيخ ناصر في الصحيحة (٢٨٢٩): «الحديث حسن أو صحيح». اهـ. وفي حاشية السندي على ابن ماجه: «قوله (كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ) قَالَ السُّيُوطِيُّ: هُوَ الْمُتَغَيِّرُ اللَّوْنِ وَالْجِسْمِ لِعَارِضٍ مِنَ الْعَوَارِضِ؛ كَمَرَضٍ أَوْ سَفَرٍ وَنَحْوِهَا. وَكَأَنَّهُ يَجِيءُ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ لِيَكُونَ أَشْبَهَ بِصَاحِبِهِ فِي الدُّنْيَا، أَوْ لِلتَّنْبِيهِ لَهُ عَلَى أَنَّهُ كَمَا تَغَيَّرَ لَوْنُهُ فِي الدُّنْيَا لِأَجْلِ الْقِيَامِ بِالْقُرْآنِ كَذَلِكَ الْقُرْآنُ لِأَجْلِهِ فِي السَّعْيِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَنَالَ صَاحِبَهُ الْعَايَةَ الْقُضُوعَى فِي الْآخِرَةِ». اهـ. وقد شرح المؤلف هذا الحديث الشريف شرحاً مفصلاً به كثير من الإفادات في رسالة «من بركات وأنوار القرآن الكريم» - يشر الله نشرها والنفع بها -، وهي تفرغٌ مهذب لسلسلة خطب ينفس الاسم، ألقاها في سنة ١٤٣١ هـ.

الفائدة الثانية: مشاركة الصالحين من قبلنا في دأبهم

قول النبي ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلْسَّيِّئَاتِ [وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ]»^(١)

قيام الليل: شعار الصالحين قبلكم، دأب الصالحين قبلكم، والصالحون قبلكم لابد وأن تشاركوهم فيه، وأن تنافسوهم عليه، ولا يكون الصالحون قبلكم أولى بالله تعالى منكم، وأولى بمجاورته سبحانه وتعالى في جنته مع "النيبين والصديقين والشهداء" منكم.

انظر هؤلاء الصالحين كيف قَضَوْا ليلهم يستنصرون ربهم ويدعونهم ويناشدونه، ثم يُصْبِحُونَ ليقاتلوا عدوهم، فما كانوا يستنصرون وَيَتَّقَوْنَ ويستمدون المدد والعون من الله تعالى إلا بذلك القيام.

لذلك: لما وصفوهم قالوا: لهم دَوِيٌّ بالقرآن كدوي النحل في ليلهم. كانوا فرساناً بالنهار، رهباناً بالليل، وذلك في أشد المواطن فزعاً، وفي أشدها خطراً، و مخافةً، وهي عند مواجهة عدوهم -ليس عندما يَسْعَوْنَ إلى رزقهم أو معاشهم أو دراستهم- يقومون ليلهم، بل في أشد من ذلك؛ إذا لاقوا عدوهم كانوا يقومون

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٩) من حديث أبي أمامة ؓ. وما بين المعقوفتين زيادة من حديث بلال ؓ عنده أيضاً. وحديث أبي أمامة قال فيه العراقي في تخريج الإحياء: (رواه الطبراني والبيهقي من حديث أبي أمامة بسند حسن) اهـ، ورواه بنحوه بالزيادة المذكورة الطبراني في الكبير (٦١٥٤) عن سلمان الفارسي ؓ يرفعه، قال الهيثمي في المجمع: (رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن سليمان بن أبي الجون؛ وثقه دحيم وابن حبان وابن عدي وضعفه أبو داود وأبو حاتم) اهـ.

ليلهم، مع أنهم كانوا ينبغي أن يناموا حتى يستطيعوا أن يقاتلوا، وإنما قاموا ليكون ذلك القيام مددهم، وَعَوْنُهُمْ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ.

وذلك وصفهم الذي أشار إليه المولى سبحانه وتعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ

الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٦].

وانظر إلى حال المؤمنين في ليلهم كما وصفهم الله تعالى لتعظ به في حال أنفسنا:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٧﴾ ءَاخِذِينَ مِمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْهُم بِإِذْنٍ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٨﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٩﴾ وَإِلَّا تَحَارِهِمْ يُسْتَغْفِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذريات: ١٥-١٨].

يعني: كانوا قليلاً من الليل ما ينامون.

الهجوع: النوم، والتهجد: هو قيام الليل.

وصف ليلهم بقلة الهجوع، ووصف أيضاً ليلهم بالتجافي عن المضاجع،

ووصف ليلهم ﷻ بالبيات سُجَّدًا لِّلَّهِ تَعَالَى وَقِيَامًا.

فتلك أحوال غريبة، وتلك أمور تكاد أن تكون صعبة، ولكنها نَحْفٌ كَمَا

أشرنا عندما يَعْلَمُ المرءُ أن ذلك سببه محبة الله تعالى والشوق إليه والتنعم بالوقوف

بين يديه، وقررة العين بالإقبال عليه، قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ

يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٦].

فهذه حال المؤمنين الذين بَشَّرَهُمُ رَبُّهُمْ بِالْجَنَّةِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ

وَعُيُونٍ﴾ [الذريات: ١٥].

قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ،
تَوْضِحَ أَوْلَ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَ "رَمَضَانَ" ، وَتَزْدَادُ هَذِهِ الصِّفَةَ فِي "رَمَضَانَ" كَحَالِ
النَّبِيِّ ﷺ الْمَشْرِفِ: "أَنَّ تَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ" يَعْنِي: أَنَّ تَتَبَاعَدُ هَذِهِ الْجُنُوبُ
عَنْ مَكَانِهَا الَّتِي تَضْجَعُ فِيهِ لِتَسْتَرِيحَ ... تَبْعُدُ هَذِهِ الْجُنُوبُ عَنْ مَوَاضِعِ الرَّاحَةِ، إِذِ
الرَّاحَةُ الْحَقَّةُ فِي قِيَامِهَا لِلَّهِ تَعَالَى.

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾:

فليس نومهم طويلاً، وليس نومهم ثقیلاً، وليس النوم أحب إليهم، بل على

العكس.

فهذه الحالة إذا تَبَيَّنَ مَحَبَّتُهُمْ لِرَبِّهِمْ، بَلْ مَحَبَّةَ رَبِّهِمْ لَهُمْ.

وقد ذكرنا في الثلاثة الذين يحبهم الله تعالى ذلك الرجل الذين كان معهم في
سفرهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يَعْدِلُ بِهِ - أي كان النوم أحب شيء إليهم
ولا يساويه شيء - " قام إليَّ أحدهم يدعوني ويتلو آياتي ويتملقني " (١).

هؤلاء يحبهم الرب جل وعلا، وكفى بذلك شرفاً تلك الحالة، وتلك المنزلة
وبهذه المرتبة العالية التي تُبَيِّنُ قَرَبَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَصْطَفَاءَ اللَّهِ لَهُمْ وَاجْتِبَاءَهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى إِيَّاهُمْ.

لذلك قال: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾.

(١) انظر تمام نص الحديث وشرحه وتخرجه في الفصل الثاني: الوظيفة الثانية.

ولا شك أن حال المؤمنين اليوم على العكس؛ كلما وجد وقتًا فارغًا بدلًا أن يصلي ويقوم ويدعو ويأخذ حظه من الله تعالى.. إذا به ينام هذا الوقت، ويحزن أن ضاع حظه من نومه، ويحزن أن قلت ساعات نومه، ولا يحزن أن قلت ساعات إقباله على الله وتمتلقه له، ودعائه له، وإقباله عليه، وأن يأخذ من ربه -جل وعلا- النصيب الأوفى من المحبة والإقبال عليه، والنظر له واصطفائه واجتباؤه.

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ):

بل إن الله -تبارك وتعالى- قد بين أن ليلهم ليس النوم -كما هو الحال في طبيعة المرء- بل وصفهم ربهم في وصف عباد الرحمن بقوله: (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) [الفرقان: ٦٤].

وانظر إلى هذا التركيب القرآني البديع؛ يبيتون سجداً! الأصل في استعمال "يبيت" لغويا في غير القرآن أن يقول: "يبيت الرجل نائماً". فكأنه رفع "نائماً" هذه ووضع بدلها "سجداً وقياماً".

فبدلاً أن يقول: بئ الليلة، يعني: نمتُ هذه الليلة، يقول: نام قائماً راکعاً، ساجداً. كأن نومه وراحته هو السجود والركوع... كأن نومه وراحته هو الإقبال على الله تعالى وعلى طاعته. فلا يكون المرء مطمئناً مستريحاً هادئ البال قد أخذ قسطه من الراحة التي يرجو والاستجمام الذي يسعى إليه إلا راکعاً وساجداً.

وقال تعالى: (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) [آل عمران: ٤١٧]، ليبين كذلك تلك الحال التي قال فيها الله تعالى للنبي ﷺ: (يَتَأْتِيهَا الْمَزْمِيلُ) قُرِ الْيَلْ إِلَّا قَلِيلًا ۗ نِصْفَةٌ

﴿ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلاً ۖ ﴿٥٠﴾ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَزَلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۖ ﴿٥١﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۖ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المزمل: ٥٠:١].

وقال: ﴿ إِنْ رَبِّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۗ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۗ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۗ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ [المزمل: ٢٠:٢٠].

فكان ذلك حالهم الذي ينبغي التفكير فيه ومقارنة أحوالنا على كلام القرآن؛ ليضع المرء الدواء على موطن الداء، وليقوم لله تعالى تلك القومة التي أمره بها: ﴿ قُمْ لَيْلًا إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

وقد كان حال من أحوال النبي ﷺ في قيامه بالليل هذا الحال، وهو: أنه ﷺ ما تريد أن تراه قائماً إلا رأيته، وما تريد أن تراه نائماً إلا رأيته^(١).

ومعنى ذلك: أنه ﷺ - كما يقول العلماء - كان يكابد حال قيامه لليل. وصفة مكابدة الليل: أن يقوم فيتوضأ، فيصلي، ثم تغلبه عينه، فينام قليلاً، فيفزع مرة أخرى، فيقوم، فيتوضأ، فيصلي ثم تغلبه عينه، فينام قليلاً، فيقوم فيتوضأ فيصلي، وهي شدة المكابدة، وهي حال من أحواله ﷺ التي تُبَيِّنُ هذا التجافي عن المضاجع،

(١) عن أنس رضي الله عنه قال «مَا كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ أَرَاهُ مِنَ الشَّهْرِ صَائِماً إِلَّا رَأَيْتُهُ، وَلَا مُفْطِراً إِلَّا رَأَيْتُهُ، وَلَا مِنَ اللَّيْلِ قَائِماً إِلَّا رَأَيْتُهُ، وَلَا نَائِماً إِلَّا رَأَيْتُهُ، وَلَا مَسِسْتُ خَزَّةً وَلَا حَرِيرَةَ أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا شَمِمْتُ مِسْكَةً وَلَا عَبِيرَةَ أَطْيَبَ رَائِحَةً مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». أخرجه الإمام البخاري (١٩٧٣).

والتي تبين أنه ﷺ كان يبيت لربه راكعًا وساجدًا وقائمًا؛ يرجو رحمة ربه كما ذكر المولى عليه السلام (١).

لذلك:

كان علمُ المرء بقرب الربِّ جَلَّ وعلا في جوف الليل منه عونًا له على القيام لله تعالى؛ إذا به يهْبُ من نومه لقرب ربه منه، ولإقباله على ربه، فيقوم حالئذ، وقد ترك نومه وراحته وزوجته، ليقوم لله تعالى في تلك الليلة التي أقامه الله تعالى فيها.

فقد رُوِيَ أن الله تعالى يقول لجبريل: «أقم فلانًا، وأنم فلانًا»، يُقيم فلانًا ليذكر الله تعالى، وأنم فلانًا؛ لأنه لا يريد منه ذِكْرًا لله تعالى لما صدر منه.

قد أتت الأيام الجميلة، وأتت مواسم الرحمة لِيَنْفُضَ المرءُ عنه ثوبَ الغفلة، وثوب النوم، وثوب البُعد، والجفاء عن الله تعالى؛ لتكون راحته ولذته ونعيمه وسروره وشوقه في الإقبال على الله تعالى.

الفائدة الثالثة: قيام الليل مطردة للداء عن الجسد

يقول صلوات ربي وسلامه عليه: «وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ»^(٢) يعني: إن أولئك المتخوفين من قيام الليل بسبب مرضهم وتعبهم و شقائهم، وبسبب كذا وكذا مما يكون عائقًا عن القيام، إذا القيام على العكس مما يخافون، فهو سببٌ لطرْدِ الداء عن البدن، وسببٌ لشفاء هذا البدن. فإذا ما قام لله تعالى كان سببًا لشفائه،

(١) قال تعالى: «أَمَّنْ هُوَ قَبِيضٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ» [الزمر: ٤٩].

(٢) سبق تحريجه .

ورفع تعبهُ، وعدم شعوره بهذه المشقة التي أصابته في يومه؛ لأنه أقبل على ربه فَنَسِيَ به الشقاء؛ "حتى إذا كان النوم أحب إليه مما يعدل به قام إليه".

وهذا القيام لا يُشعرُ المرء بهذا التعب؛ لأن قرّة عينه فيه؛ لأن لذته ونعيمه لا تكون إلا بذلك، تَعَسَّ من كان نعيمه وسعادته في الدنيا الزائلة، في امرأته وولده وماله وشُغله وأصحابه، وأنسه بغير الله تعالى.

الفائدة الرابعة: قيام الليل مكفرة للسيئات

وإنه كذلك كما أشرنا «وَمَكْفَرَةٌ لِّلْسَيِّئَاتِ» (١).

يعني: سبب تكفير السيئات والذنوب والمعاصي قيام الليل كما ذكر الله تبارك وتعالى، وكما ذكر النبي ﷺ، وإنهم كانوا يُصلُّون ليلهم حتى إذا أسحروا - يعني: إذا دخلوا في السَّحَرِ - قاموا فاستغفروا الله تعالى كما ذكر سبحانه: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

قاموا ليلهم، حتى إذا أسحروا أخذوا يستغفرون الله تعالى، وهو معني دقيق؛ أنهم بعد صلاتهم في ليلهم إذا بهم لا يرون أنهم قد عملوا شيئاً لله تعالى، وإنما يستغفرون؛ كأنهم قد باتوا يعصون الله تعالى!!

سُئِلَ الحسن رضي الله عنه عن المتهجِّدين: ما بالهم أحسن النَّاسِ وجوهاً؟ قال: قاموا إلى ربهم، فألبسهم من نوره سبحانه وتعالى.

هذه الأمور تَحْمِلُكَ على القيام، وتأخذك إلى الله تعالى.

(١) سبق تحريجه .

وما رأينا القوة والنور في أولئك الصالحين إلا بسبب ذلك: إذا جَنَّهُم الليل صَفُّوا أقدامهم لرَبِّهم، فمنهم بالكِّ، ومنهم صارخ، ومنهم داعٍ، ومنهم راعٍ، ومنهم ساجدٌ.

الفائدة الخامسة: قيام الليل يخفف قيام يوم مقداره خمسين ألف سنة

وأمرٌ آخر وهو أن طول القيام يُخفف قيامَ يوم طوله خمسون ألف سنة، فيتذكر المرء ذلك فتَهون عليه المشقة، كما يعلم أن هذه الجوارح الزائلة ستشهد له عند الله تعالى يوم القيامة من ناحية، وتكون منيرة له بنور القرآن والقيام من ناحية أخرى.

عن أبي ذر رضي الله عنه ^(١) قال: «صوموا يوماً شديداً حرّه لحرِّ يوم النشور، وصلُّوا ركعتين في سواد الليل لو حشّة القبور» ^(٢).

(١) أبو ذرّ جُنْدُب بن جُنَادَةَ الْغِفَارِيُّ أَحَدُ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، مِنْ تَجْبَاءِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله. وَكَانَ يُقْتَبَى فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ. وَكَانَ رَأْسًا فِي الزُّهْدِ، وَالصَّدَقِ، وَالْعِلْمِ، وَالْعَمَلِ، قَوْلًا بِالْحَقِّ، لَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ. عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ: (مَا أَظْلَمَ الْخَضْرَاءُ وَلَا أَقْلَمَ الْغُبْرَاءُ عَلَى ذِي هِجَةٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٨٤٧٨) وَقَالَ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يَخْرُجْ عَنْهُ، قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي التَّلْخِصِ: عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ. أَمَّا تَوَفِيُّ رضي الله عنه سَنَةَ ٣٢ هـ بِالرَّبِذَةِ.

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي الْحَلِيَّةِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه فِي تَرْجُمَتِهِ مَوْقُوفًا عَلَيْهِ، وَنَذَرَ تَمَامَ الْأَثَرِ لِلْفَائِدَةِ: (عَنْ سَفْيَانَ الثَّوْرِيِّ قَالَ: قَامَ أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ رضي الله عنه عِنْدَ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنَا جُنْدُبُ الْغِفَارِيِّ، هَلُمُّوا إِلَى الْأَخِ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ، فَاسْتَنْفِ النَّاسَ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَرَادَ سَفْرًا أَلَيْسَ يَتَخَذُ مِنَ الزَّادِ مَا يَصْلُحُهُ وَيَبْلِغُهُ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَسَفَرُ طَرِيقِ الْقِيَامَةِ أَبْعَدُ مَا تَرِيدُونَ، فَخَذُوا مِنْهُ مَا يَصْلُحُكُمْ، قَالُوا: وَمَا يَصْلُحُنَا؟ قَالَ: حَجَّوْا حِجَّةَ لِعِظَامِ الْأُمُورِ، صُومُوا يَوْمًا شَدِيدًا حَرَّهُ لَطُولِ النَّشُورِ، صَلُّوا رَكْعَتَيْنِ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ لَوْحِشَةِ الْقُبُورِ، كَلِمَةٌ خَيْرٌ تَقُولُهَا، أَوْ كَلِمَةٌ سَوْءٌ تَسْكُتُ عَنْهَا لَوْ قُوفَ يَوْمَ عَظِيمٍ،

فإن مما يُتَّيَّر قبر المرء، ويزيد نوره عند مروره على الصراط ذلك القيام الذي يزهده المرء فيه اليوم، مع أن راحة جسده وشفاء بدنه إنما هو في ذلك القيام.

تشهد لهم هذه الجوارح الضعيفة اليوم بطول قيامهم، وتُتَّيَّر لهم قبرهم، وتُنِير لهم طريقهم على صراطهم، إذ المرور على الصراط على حسب هذا النور ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢].

هذه الصلوات وطولها وتعبها ومشقتها - التي يظن المرء أن لها تعباً ومشقة - إذا بها هي الراحة^(١)، وإذا بها هي نورهم ﴿يَوْمَ لَا يَحْزَى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

تصدق ببالك لعلك تنجو من عسرها، اجعل الدنيا مجلسين؛ مجلساً في طلب الآخرة، ومجلساً في طلب الحلال، والثالث يضرك ولا ينفعك لا تريده. اجعل المال درهمين، درهماً تنفقه على عيالك من جلّه، ودرهماً تقدمه لآخرتك، والثالث يضرك ولا ينفعك لا تريده. ثم نادى بأعلى صوته: يا أيها الناس قد قتلكم حرص لا تدركونه أبداً).

(١) وليس في القيام الراحة والنور فقط، بل فيه أيضاً شرف المؤمن: «جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا محمد: عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزّه استغناؤه عن الناس». قال المنذري في الترغيب: رواه الطبراني بإسناد حسن. اهـ.

كما أن قيام الليل هو أفضل النوافل عند كثير من العلماء لقول النبي ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمِ. وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ» رواه الإمام مسلم.

وبقيام الليل يتوسل العبد إلى ربه لينال رحمته سبحانه وتعالى، قال ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَبْقَطَ أَمْرَاتَهُ فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ. رَحِمَ اللَّهُ أَمْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَبْقَطَتْ زَوْجَهَا فَإِنْ أَبِي نَضَحَتْ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ» الحديث رواه أبو داود وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وبالقيام أيضاً يرجو به العبد نيل عطايا الرب سبحانه وتعالى واستجابة الدعوات؛ فعن رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُؤَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَذَلِكَ كُلُّ

تُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتَ لَنَا نُورٌ نَا وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ [التحرير: ٨].

٣- الترهيب من ترك قيام الليل

لذلك: لما كان الأمر على هذا الحال الذي ذكرنا، إذا بالنبي ﷺ يُحذَرُ: « لا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ؛ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ »^(١). ويقول في حقَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: « إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ رَجُلٌ صَالِحٌ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ »^(٢).

يقول سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (١) راوي الحديث عن أبيه عبد الله بن عمر^(٢): فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا^(٣).

تَبْلَغٌ . رواه الإمام مسلم . وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يَكْتُتْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِبِأَيَّةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقْنَطَرِينَ». أخرجهُ أَبُو دَاوُدَ (١٣٩٨) وسكت عنه، وقال الحافظ ابن حجر: حسنٌ لشواهدِهِ. انتهى من نتائج الأفكار (٢٥٣/٣)، ط. دار ابن كثير. وقوله ﷺ (مِنَ الْقَانِتِينَ): يَرِدُ بِمَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ كَالطَّاعَةِ وَالْحُشُوعِ وَالصَّلَاةِ وَالِدُعَاءِ وَالْعِبَادَةِ وَالْقِيَامِ وَالسُّكُوتِ فَيُصَرِّفُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي إِلَى مَا يَحْتَمِلُهُ لَفْظُ الْحَدِيثِ الْوَارِدِ فِيهِ، كَذَا فِي النِّهَايَةِ، وَالْمُرَادُ هَاهُنَا الْقِيَامُ فِي اللَّيْلِ، (كُتِبَ مِنَ الْمُقْنَطَرِينَ): بِكَسْرِ الطَّاءِ مِنَ الْمَالِكِينَ مَالًا كَثِيرًا، وَالْمُرَادُ كَثْرَةُ الْأَجْرِ، وَقِيلَ أَيُّ مَنْ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ؛ أَيُّ أَجْرًا عَظِيمًا قَالَهُ السُّنْدِيُّ. انتهى من عون العبود. قال الحافظ المنذري - : «من سورة «تبارك الذي بيده الملك» إلى آخر القرآن ألف آية والله أعلم».

(١) أخرجه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٢٩)، ومسلم (٢٤٧٩) من حديث سالم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يرفعه إلى

النبي ﷺ.

وإن مما يُقَوِّي المرء على يومه، وَيَحْفَظُهُ عليه وتتنزل عليه بركته هو ذلك القيام.

وما يُتْرَك قيام الليل إلا بحرمان من الله تعالى بسبب المعصية، يقول أحد الصالحين: أذنبت ذنباً فَحَرَمْتُ قيام الليل خمسة أشهر. ويقول آخر: أذنبت ذنباً فَحَرَمْتُ قيام الليل سنة. وانظر إلى نفسك!! تراك يوماً أو يومين أو ثلاثة تقوم الليل، ثم بعد ذلك تنقلب أحوالك، وتقع في المعصية أو الغفلة فإذا بك مُحْرَمُ أياماً كثيرة من قيام الليل.

قال النبي ﷺ: « يَعْقُدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ ثَلَاثَ عُقَدٍ إِذَا نَامَ، بِكُلِّ عُقْدَةٍ يَضْرِبُ عَلَيْكَ لَيْلًا طَوِيلًا، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا

(١) سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْحَطَّابِ الْإِمَامِ، الزَّاهِدِ، الْحَافِظِ، مُفْتِي الْمَدِينَةِ وَ أَحَدِ الْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ، أَبُو عَمَرَ، وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ، التَّابِعِيُّ، الْقُرَشِيُّ، الْعَدَوِيُّ، الْمَدَنِيُّ. ثَبَتَ عَابِدٌ فَاضِلٌّ، مَوْلِدُهُ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ ﷺ.

عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسِ الْإِمَامِ، قَالَ: (لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فِي زَمَانِ سَالِمٍ أَشْبَهَ بِمَنْ مَضَى مِنَ الصَّالِحِينَ، فِي الزُّهْدِ، وَالْفَضْلِ، وَالْعَيْشِ مِنْهُ؛ كَانَ يَلْبَسُ الثَّوْبَ بِدِزْهَمِينَ!)، وَكَانَ أَبُوهُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَصَاحِبِهِ يَجِبُ حُباً شَدِيداً حَتَّى يُلَامَ فِي ذَلِكَ، فَكَانَ يَقُولُ:

يَلُومُونَنِي فِي سَالِمٍ وَالْوُؤْمَهُمْ جِلْدَةٌ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ سَالِمٌ

توفي سنة: ١٠٦ هـ. انظر بتصرف السير وتهذيب التهذيب

(٢) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْحَطَّابِ بْنِ نُفَيْلِ الْإِمَامِ، الْقُدْوَةُ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقُرَشِيُّ، الْعَدَوِيُّ، الْمَكِّيُّ، ثُمَّ الْمَدَنِيُّ. أَسْلَمَ وَهُوَ صَغِيرٌ، ثُمَّ هَاجَرَ مَعَ أَبِيهِ لَمْ يَخْتَلِمْ، وَاسْتُصْعِرَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَأَوَّلَ عَزْوَائِهِ الْحَنْدُوقُ، وَهُوَ يَمِّنُ بِأَيْعِ تَحْتِ الشَّجَرَةِ. رَوَى عِلْمًا كَثِيرًا نَافِعًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنْ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَالْحَدِيثِ أَعْلَاهُ شَهَادَةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَضْلِهِ. تَوَفِيَ سَنَةَ ٧٣ أَوْ ٧٤ هـ.

تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَتَانِ، فَإِذَا صَلَّى انْحَلَّتِ الْعُقْدُ فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانَ»، لم يُصَبَّ خَيْرًا، وهذا هو حالنا اليوم للأسف، لذلك يقول ﷺ في الذي نام الليل كله: «ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ» (١). وإن بَوَّلَ ثَقِيلَ يَنْبَغِي أَنْ يَنْفَرَّ مِنْهُ الْمُؤْمِنُ، وَأَنْ يُسَارِعَ إِلَى رِضَا اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْ يَكُونَ قِيَامُهُ هَذِهِ الْأَيَّامَ اسْتِعْدَادًا لِلْمَغْفِرَةِ؛ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ دَأْبَهُ كَمَا كَانَ دَأْبَ الصَّالِحِينَ قَبْلَنَا (٢).



ويليه العدد الثاني من سلسلة (إيقاظ أهل الإيثار لمغفرة رمضان)

وهو: (حال المؤمنين في رمضان) (٣)

- (١) أخرجه البخاري (٣٢٧٠)، ومسلم (٧٧٤) من حديث عبد الله بن مسعود ؓ.
- (٢) ومن الأحاديث الواردة في الترهيب من ترك قيام الليل ما رواه ابنُ عمرَ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ «وَإِذَا قَامَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ فَقَرَأَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ذَكَرَهُ، وَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ». أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٧٨٩)، ومفهومُ قوله ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ» - سبق تحريجه قريباً يُفِيدُ الترهيب من القيام بأقل من عشر آيات.
- (٣) فيا غيوم الغفلة عن القلوب تقشعي، يا شُموسَ التقوى والإيمان اطلعي، يا صحائفَ أعمالِ الصائمين ازفعي. يا قلوبَ الصائمين اخشعي. يا أقدامَ المتجهدين اسجدي لربك وازكعي. يا عيونَ المجتهدين لا تهجعي، يا ذنوبَ التائبين لا تزجعي. يا أرضَ الهوى ابلعي ماءك ويا سماءَ النفوسِ اقلعي. يا بُروقَ العُشاقِ للعشاقِ المُعي. يا خواطرَ العارفين ازفعي يا همَمَ المحيين بغير الله لا تقنعي... قد مدَّتْ في هذه الأيامِ موائدُ الإِنعامِ للضُّوأمِ فما منكم إلا مَنْ دُعِيَ: ﴿يَقُومُوا أَدْعَى اللَّهِ﴾ [الاحقاف: ٣١]. ويا همَمَ المؤمنينِ أسرعِي. فَطُوبَى لِمَنْ أَجَابَ فَأَصَابَ، وَوَيْلٌ لِمَنْ طُرِدَ عَنِ الْبَابِ وَمَا دُعِيَ. كَيْتَ شَعْرِي إِنْ جِئْتَهُمْ يَقْبَلُونِي؟ ... أَمْ تَرَاهُمْ عَنِ بَابِهِمْ يَصْرَفُونِي؟ أَمْ تُرَانِي إِذَا وَقَفْتُ لَدَيْهِمْ ... يَأْذِنُوا بِالْدُخُولِ؟ أَمْ يَطْرُدُونِي؟

انتهى بتصرف واختصار من لطائف المعارف، ص ١٦١، ١٦٢، ط. ابن حزم.

المحتويات

٣	الخامسة	الطبعة	مقدمة
٤	الأولى	الطبعة	مقدمة
٧	شعبان	بشهر	الفصل الأول: أسباب الاهتمام
١٩	شعبان	في شهر	الفصل الثاني: وظائف المؤمنين
٢٣	شعبان	شهر	الوظيفة الأولى: صيام
٢٩	بالطاعة	الغفلة	الوظيفة الثانية: تعمير أوقات
٤٥	الطاعات	على	الوظيفة الثالثة: مجاهدة النفس
٥١	العالمين	لرفعها	الوظيفة الرابعة: تجهيز أفضل الأعمال
٦٥	شعبان	استعدادا	الوظيفة الخامسة: تحصيل مغفرة الرب عز وجل في ليلة النصف من
٦٩	الوظيفة السادسة:	الانكباب على	شعبان استعدادا للعتق من النار في رمضان....
١٣٢	القيام	وطول	الوظيفة السادسة: الانكباب على كلام الله عز وجل وإدمان تلاوته
١٤٧			الوظيفة السابعة: التهجد
			الفهرس

صدر من هذه السلسلة: «إيقاظ أهل الإيمان لمغفرة رمضان»

م	اسم الرسالة	الطبعة	السنة
١	حال المؤمنين في شعبان	الخامسة	١٤٣١ هـ
٢	حال المؤمنين في رمضان	الرابعة	١٤٣٠ هـ
٣	والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلَنَا	الأولى	١٤٣٠ هـ

رسائل أخرى لها علاقة بهذه السلسلة:

م	اسم الرسالة	الطبعة	السنة
١	ماذا بعد رمضان	الثالثة	١٤٣٠ هـ